

# سُورَةُ الْفُرْقَانِ

مكية وهي سبع وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ «تبارك» كلمة تعظيم، لم تستعمل إلا لله وحده، والمستعمل الماضي فحسب، والبركة: النماء والزيادة، حسية كانت أو معنوية، وتأتي بمعنى التمجيد والتعظيم، والفرقان مصدر فرّق بين الشيئين، سُمي به القرآن لفرقه بين الحقّ والباطل، أي تعالى وتعاضم وتكاثر خير الله، الذي نزل القرآن العظيم، الفارق بين الحق والباطل ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ لِيَكُونَ ﴾ محمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ من الثقلين يتناول جميع المكلفين إلى يوم القيامة ﴿ نَذِيرًا ﴾ أي منذراً بالقرآن للإنس والجن، ومخوفاً لهم من عذاب الله، والإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبارٌ فيه سرور.

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿الَّذِي لَكُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي المالك لجميع ما في السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي وليس له ولد كما زعم اليهود، والنصارى، والمشركون حيث جعلوا الملائكة بنات الله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ أي في ملك السموات والأرض، وإفراده بالذكر، للتصريح ببطلان زعم القائلين بتعدد الآلهة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أحدث كل موجود، إحدائاً جارياً على سنن التقدير، حسبما اقتضته إرادته ﴿فَقَدَرُوا﴾ أي هياها لما أراد به ﴿تَقْدِيرًا﴾ بديعاً لا يُقادر قدره، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك، والنظر والتدبر في أمور المعاش، واستنباط الصنائع المتنوعة، وهكذا أحوال سائر الأنواع.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ الإضمار من غير ذكرهم، للثقة بمعرفتهم بدلالة ما قبله من نفي الشريك أي اتخذ المشركون لأنفسهم آلهة متجاوزين الله الذي ذكر بعض شؤونه الجليلة ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ أي لا يقدر على خلق شيء من الأشياء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كسائر المخلوقات وعبدتهم، ينحتونهم ويصورونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بيان لما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم، فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع الضر، وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وهؤلاء لا يقدر على دفع الضر، ولا جلب النفع لأنفسهم، فكيف يملكون شيئاً منها لغيرهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي لا يقدر على إماتة أحد ولا إحياء أحد، والآلهة يجب أن يكون قادراً على ذلك، وفيه إيذان بغاية جهلهم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم، أي وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي على اختلاقه ﴿ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ يعنون اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الماضية، وهو يعبر عنها بتعليمهم ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا ﴾ والتنوين للتفخيم، أي جاؤوا بما قالوا ظلماً هائلاً، حيث جعلوا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكاً مفترىً من قبل البشر، وهو من جهة نظمه الرائق، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته، من جهة اشتماله على الحكيم الخفية، والأحكام المستتعبة للسعادة الدينية والدينية، والأمور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر ﴿ وَزُورًا ﴾ أي كذباً كبيراً لا يبلغ غايتها حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو بريء منه .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين ﴿ أَكْتَتَبَهَا ﴾ أي طلب أن تكتب له ﴿ فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ ﴾ أي تُقرأ عليه ليحفظها من أفواه من يُمليها عليه، لكونه أمياً لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي دائماً صباحاً ومساءً، انظر إلى هذه الرتبة من الجرأة قاتلهم الله أنى يؤفكون .

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي قل رداً عليهم، وتحقيقاً للحق، إنه أنزله من يعلم السرّ، فلو كذب عليه لانتقم منه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ (١) فهذا القرآن الكريم المعجز في بيانه، أنزله الذي لا يغيب عن علمه شيء، وأودع فيه فنون الحكّم والأسرار، على وجهٍ بديع، لا تحوم حوله الشبهات، وقد جعلتموه إفكاً مفترىً من قبيل الأساطير، واستوجبتم أن يصبَّ عليكم الله سوط العذاب، لكنه تعالى رحيم بالعباد، ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي مستمر على المغفرة والرحمة، فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون في حقه ﷺ .

﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ .

﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ ﴾؟ شروع في حكاية جناياتهم المتعلقة بخصوصية الرسول ﷺ، و«ما» استفهامية، بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، وفي هذا تصغيرٌ لشأنه ﷺ، وتسميتهم «رسولاً» بطريق الاستهزاء ﴿ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ أي أيُّ شيء حصل لهذا الذي يدّعي الرسالة، حال كونه يأكل الطعام كما نأكل؟ ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾؟ لا ابتغاء الأرزاق كما نفعله، يعنون أنه إن صحَّ ما يدعيه، فما باله لم يخالف حاله حالنا؟ وهل هو إلا لعمهم، وركاكة عقولهم، وقصور أنظارهم؟ فإن تمييز الرسل عن عداهم، ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور روحانية، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي على صورته وهيئته ﴿ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ تنزلُ منهم من اقتراح أن

(١) سورة الحاقة، آية: ٤٤ - ٤٥ .

يكون مَلَكًا، مستغنياً عن الأكل والشرب، إلى اقتراح أن يكون معه مَلَكٌ يصدِّقه، ويكون عوناً له في الإنذار.

﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ تنزَّلُ آخر إلى اقتراح أن يُلقى إليه من السماء كنز، يستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلاً إلى صدقه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ تنزل ثالث إلى اقتراح أيسر منه، وأقرب من الوقوع، وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ هم القائلون الأولون، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تسجيلاً عليهم بالظلم أي قالوا للمؤمنين ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ قد سحر فغلب على عقله.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترؤوا على التفوه بها، أي انظر يا محمد كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل السخيفة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا تلك الصفات البعيدة من الوقوع ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن طريق الهدى والحق، حيث لم يأتوا بشيء يمكن صدوره عن له أدنى عقل وتمييز ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي فلا يجدون طريقاً موصلاً إلى الحق، بعد أن ضلوا عنه.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي ﴾ أي تكاثر وتزايد خير الله الذي ﴿ إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ في الدنيا عاجلاً شيئاً ﴿ خَيْرًا ﴾ لك ﴿ مِنْ ذَلِكَ ﴾ الذي اقترحوه من أن يكون لك جنة ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي لو شاء لأعطاك حدائق وبساتين تسير فيها الأنهار، لا جنة واحدة كما قالوا ﴿ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ أي قصوراً وبيوتاً مشيدة، وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين، للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل، واستغنائهما عن الجواب، لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير، فإن بعض الأنبياء قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً، ولكن أخره للرسول ﷺ إلى الآخرة، لأنه خير وأبقى.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ (١١).

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ إضراب عن توبيخهم، بحكاية جنائياتهم السابقة، أي بل كذبوا بالقيامة وبالْحِسَابِ والجزاء، ولذلك أقدموا على السخرية والاستهزاء ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أي أعدنا لهم ناراً عظيمة، شديدة الاشتعال، بسبب تكذيبهم بها.

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ (١٢).

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ أي إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد، ونسبة الرؤية إليها، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها، لهيجان غضبها عليهم، عند رؤيتها إياهم حقيقة أو تمثيلاً، وقوله تعالى: ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها، بصوت المغتاط وزفيره، وهو صوت يُسمع من جوفه، هذا ويمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة، فترى وتتغيظ، وتزفر.

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (١٣).

﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ من جهتكم ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي إلا فعل من يريد، أن يتقرب إلى الله، بالإيمان والطاعة، فصور ذلك بصورة الأجر، من حيث إنه مقصود بالذات، شفقة عليهم، وقيل: الاستثناء منقطع، أي لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْهِجَىٰ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ۝٥٨﴾ .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْهِجَىٰ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ أي اعتمد في جميع أمورك وأحوالك على ربك الواحد الأحد، الذي لا يموت، توكل عليه في الاستكفاء عن شرورهم، والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يُتوكل عليه، دون الأحياء الذين من شأنهم الموت، فإنهم إذا ماتوا، ضاع من توكل عليهم ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ونزهه عن صفات النقصان، مثناً عليه بنعوت الكمال، طلباً لمزيد الإنعام، أي قل سبحان الله وبحمده ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ﴾ أي حسبك أن الله تعالى مطلع على أعمال العباد، ما ظهر منها وما بطن ﴿ خَيْرًا ﴾ أي مطلعاً عليها بحيث لا يخفى عليه شيء منها، فيجزئهم جزاءً وافيًا، فلا عليك إن آمنوا، أو كفروا.

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ۝٥٩﴾ .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تعطيل، وُصف تعالى بصفة الفعلية، بعد وصفه بالأبدية، لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ مرفوع على المدح، أي هو الرحمن، وهو في الحقيقة وصف للحي المذكور

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ۝ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ هذا هو النوع الخامس من آثار القدرة والوحدانية، والمراد بالماء: النطفة، أي هو تعالى بقدرته خلق من النطفة إنساناً سمياً بصيراً ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً ينتسب إليهم، وذوات صهر أي إناثاً يُصاهرُ بهنَّ، كقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ (١) ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أي مبالغاً في القدرة، حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة، بشراً ذا أعضاء مختلفة، وطباع متباعدة، وربما يخلق من نطفة واحدة، توأمين: ذكراً، وأنثى.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ۝ ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الذي شأنه ما ذكر ﴿ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ أي ما ليس من شأنه النفع والضرر، وهو الأصنام أو كل ما يعبد من دونه تعالى ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ ﴾ معصية ﴿ رَبِّهِ ﴾ الذي ذُكِرَتْ آثارُ ربوبيته ﴿ ظَهِيرًا ﴾ يظهر الشيطان بالشرك والعصيان، أو يظهر بعضهم بعضاً، على إطفاء نور الله تعالى.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ۝ ﴾ .

(١) سورة القيامة، آية: ٣٩.

كَبِيرًا ﴿ فَإِنَّ دَعْوَةَ كُلِّ الْعَالَمِينَ، عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ، جِهَادٌ كَبِيرٌ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْجِهَادِ: الْقِتَالُ، وَالْأَقْرَبُ الْأَوَّلُ، لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةً، وَالْأَمْرُ بِالْقِتَالِ وَرَدَّ بَعْدَ الْهَجْرَةِ.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ هذا هو النوع الرابع من أدلة القدرة والوحدانية، أي خلأهما متجاورين متلاصقين، بحيث لا يتمازجان، من مَرَجٍ دابته إذا خلأها، وأصل المَرَج: الإرسال والخلط ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قَامِعٌ لِلْعَطَشِ لِعَايَةِ عَذُوبَتِهِ ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ بَلِيغٌ الْمَلُوحَةِ ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ حَاجِزًا غَيْرَ مَرْتَبِيٍّ مِنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى، وَهُمَا فِي الظَّاهِرِ مَخْتَلِطَانِ، وَفِي الْحَقِيقَةِ مَنفَصِلَانِ ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ وَتَنَافُرًا مَفْرَطًا، كَأَنَّ كِلَا مِنْهُمَا يَتَعَوَّذُ مِنَ الْآخَرِ، وَوَجْهَ الْاسْتِدْلَالِ هَهُنَا أَنَّ الْعَذُوبَةَ وَالْمَلُوحَةَ، إِنْ كَانَتْ بِطَبِيعَةِ الْأَرْضِ أَوْ الْمَاءِ، فَلَا بَدَّ مِنَ الْاسْتَوَاءِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَلَا بَدَّ مِنْ قَادِرٍ حَكِيمٍ، يَخْصُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَجْسَامِ، بِصِفَةِ خَاصَّةٍ مَعِينَةٍ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْبَحْرِ الْعَذْبِ: النَّهْرُ الْعَظِيمُ، كَالنَّيْلِ وَالشُّطِّ، وَبِالْمَالِحِ: الْبَحْرُ الْكَبِيرُ، وَبِالْبَرْزَخِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ<sup>(١)</sup>.

(١) قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية أنه تعالى خلق الماءين: الحلو، والمالح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، والمالح كالبهار الكبار التي لا تجري، وجعل بين العذب والمالح حاجزاً، وهو اليابس من الأرض، ومانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، ا.هـ. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، أقول: وهو الأظهر في معنى الآية الكريمة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ فالمراد بالعذب الفرات مياه الأنهار، لأنه ليس هناك بحار حلوة، وهذا من باب التغليب حيث أطلق على النهر اسم البحر، والله أعلم.

غيرها، والأول أظهر ﴿فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ﴾ أي أبى أكثر البشر، ممن سلف وخلف ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي لم يفعلوا إلا كفران النعمة، وقلة الاكتراث لها عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في إثر سماء من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم!! قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بِنُوءِ كَذَا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»<sup>(١)</sup>.

### ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أي نبياً يُنذر أهلها، فيخفف عليك أعباء النبوة، ولكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الأمر عليك، حسبما ينطق قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ إجلالاً لك، وتفضيلاً لك على سائر الرسل.

### ﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم، وكما آثرتك على جميع الأنبياء، فأثر رضائي على جميع الأهواء، وقابل ذلك بالثبات، والاجتهاد في الدعوة، وإظهار الحق، أريد بهذا تهيجه ﷺ وتهيج المؤمنين، كأنه تعالى نهى الرسول الله عن المداراة معهم، لما أنه ﷺ كان يود أن يدخلوا في الإسلام، ويجتهد في ذلك بتأليف قلوبهم ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، بتلاوة ما فيه من الزواجر والمواعظ ﴿جِهَادًا

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء وفي الصلاة ٢/٢٧٧، ومسلم في الإيمان رقم ٧١، وأبو داود في الطب رقم ٣٩٠٦، وانظر جامع الأصول ١١/٥٧٦.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (٤٨).

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي مبشرة بنزول المطر غوثاً للعباد ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ أي وأنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح، ماءً طاهراً مطهراً تشربون منه، وتطهرون به، والطهور: هو الطاهر في نفسه، المطهّر لغيره، ووصف الماء به، إشعاراً بتمام النعمة، فإنّ الماء الطهور، هنا وأنفع، هذا هو النوع الثالث من آثار الوجدانية والقدرة.

﴿ لِنُنْحِيَ بِهِ بِلْدَةَ مِثْنَا وَشُقَيْهٖ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ﴾ (٤٩).

﴿ لِنُنْحِيَ بِهِ ﴾ أي بما أنزلناه من الماء ﴿ بِلْدَةَ مِثْنَا ﴾ بإنبات النبات، وإخراج الزرع والثمار، والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد، فالمراد به القطعة من الأرض، عامرة كانت أو غامرة ﴿ وَشُقَيْهٖ ﴾ أي ذلك الماء الطهور، عند جريانه في الأودية، واجتماعه في المنابع والآبار ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ﴾ أي أهل البوادي، الذين يعيشون بالحياض، والمراد بالأناسي البشر الكثيرين.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٥٠).

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ أي وبالله لقد كررنا هذا القول في القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الناس، من المتقدمين والمتأخرين ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ ليتفكروا ويعرفوا بذلك، كمال قدرته تعالى، ويقوموا بشكر نعمه، وقيل: الضمير للمطر، وتصريفه بينهم: إنزاله في بعض البلاد دون

عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿ أَي جعلناها علامة، يُستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله، ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس، لما عرف الظل، والأشياء تُعرف بأضدادها.

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ .

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا ﴾ وفي بيان كون القبض والمد، مزيد دلالة على الحكمة الربانية، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتنصيص على كون مرجعه إليه تعالى، كما أن حدوثه منه تعالى ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي على مهل، قليلاً قليلاً، لا دفعة واحدة، لثلاث تاختل المصالح، وتعدم المنافع.

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي ﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى، ونعمته الفائضة على الخلق، وتلوين الخطاب لتوفية المقام حقَّ الامتنان، وهذا هو النوع الثاني من دلائل القدرة الباهرة، وآثار عظمة الله ووحدانيته، في الإتيان والإبداع ﴿جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي جعل لكم الليل كاللباس، يستركم بظلامه، كما يستركم اللباس ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة للأبدان، بقطع المشاغل، وأصل السُّبات: القطع أي وجعل النوم الذي يقع في الليل، قاطعاً للأعمال الشاقة التي يكابدها الإنسان في النهار، وعبر عنه بالسُّبات، الذي هو الموت، لما بينهما من المشابهة، في انقطاع أحكام الحياة، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ (١) ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أي زمان انتشار، ينتشر فيه الناس للمعاش، وفي الآية إشارة إلى أن النوم واليقظة، أنموذج للموت، والبعث.

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٠.

أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ، فتعنتي بشأنهم، وتطمع في إيمانهم؟ ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي ما هم في عدم الانتفاع، بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلا كالبهائم التي هي مثلٌ في الغفلة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي بل هم أشبع حالاً، وأسوأ مآلاً من البهائم والدواب، لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها، وتعرف من يحسن إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وهم لا يتقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم، فهم أضلُّ من الحيوانات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى صنيع ربك، وإبداع خلقه؟ وهو بيان لبعض دلائل التوحيد، والخطابُ للرسول ﷺ في الظاهر، وعامٌّ في المعنى، لأن المقصود بيانُ نعم الله تعالى، وجميعُ المكلفين مشترك فيه، أي ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى؟ وحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى، لأن تأثير قدرة الله تعالى غير مرئي ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي كيف بسط تعالى الظلَّ، ومدَّه وقت النهار، ليستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس ووهجها؟ إذ لولا الظلُّ في النهار، لأحرقت الشمس الإنسان والثمار، وكذَّرت حياة الإنسان، ولكنه تعالى رحيم بالعباد، يهييء لهم سبل الراحة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ الجملة اعترضت بين المعطوفين، للتنبيه من أول الأمر، على أنه لا مدخل فيما ذكر للأسباب العادية، وإنما المؤثر فيه المشيئة الإلهية، أي لو شاء سكونه لجعله ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، حتى يستفيد البشر والزرع من الظل والشمس، وحاصله بيان كمال قدرته تعالى، بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه سبحانه بالذات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ

ضلالهم ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي لولا أن ثبتنا عليها، وهذا اعتراف منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة، وإقامة الحججة، إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم، والآية تدلُّ على أنهم كانوا كالمجانين، لأنهم استهزؤوا به ﷺ أولاً، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا بقوة الحججة، وكمال العقل ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم، أي سوف يعلمون في الآخرة ﴿حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؟ أي من هو أخطأ طريقاً، وأضلُّ ديناً، أهم أم محمد ﷺ؟ وفيه من الوعيد، والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم، وإن أمهلهم، فإن عاقبة الكفر الوبال.

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ .

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾؟ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم، فقد كان الواحد منهم يعبد حجراً، ينحته بيده ويطيبه ويعبده، فإذا رأى حجراً أحسن منه، هجر إلهه ورمى به وعبد الثاني، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟ إنكار واستبعاد لكونه ﷺ حفيظاً عليه، بزجره عما هو عليه من الضلالة، وإرشاده إلى الحق، كأنه قيل: أبعدما شاهدت من غلوه في طاعة الهوى، تقسره على الإيمان؟ وهذا تئيس من إيمانهم، وإرشاد للرسول ﷺ ألا يتأسف عليهم، فإنهم في الجهل بالمنافع، وقلة النظر في العواقب، مثل البهائم التي لا تدرك شيئاً من مصالحها.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟ إضراب وانتقال عن إنكار المذكور، إلى إنكار أنهم ممن يسمع أو يعقل، أي بل أتحسب أن

السَّوِّءِ ﴿٤٠﴾ بالحجارة، وهي قري قوم لوط، وكانت خمس قري، ما نجت منها واحدة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا بِرُؤْيَاهَا﴾ توبيخ لهم على تركهم التذکر، عند مشاهدة ما يوجبه، أي أفلم يكونوا يرونها في مرورهم، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب؟ ﴿بَلْ كَانُوا﴾ إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم للمهلكين ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي إنهم لا يعتبرون ولا يتعظون، لأنهم كانوا ينكرون النشور، المستتبع للجزاء الأخرى، فكيف يتذكرون ويتعظون بما شاهدوه من آثار الهلاك؟ ولذلك مرت بهم مدن المهلكين، كما مرت بهم ركبهم!! .

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُوكَ إِلَّا هُرُوءًا أَلَيْسَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُوكَ إِلَّا هُرُوءًا﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد، ما يتخذونك إلا مهزوءاً به، يسخرون منك ويهزؤون، ويقولون: ﴿أَلَيْسَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؟ أي يستهزئون بك يا محمد قائلين: أهذا الذي أرسله الله رسولاً؟ والإشارة للاستحقار، وذكر الرسول في معرض التسليم، مع كونهم في غاية النكير لبعثته ﷺ، إنما جاء بطريق التهكم والاستهزاء وذلك جهل عظيم منهم، وسخافة وحمافة، فإنهم يستحقون أن يهزأ بهم، ثم إنهم لو قاحتهم قلبوا القضية، واستهزؤوا بالرسول ﷺ.

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾

﴿إِنْ كَادَ﴾ إنْ مخففة من «إِنَّ» وضمير الشأن محذوف، أي إن الحال أنه كاد ﴿لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها، صرفاً كلياً، بحيث يبعثنا عنها، لا عن عبادتها فقط، والعدول إلى الإضلال لغاية

كُلُّ مَنْ شَاهَدَهَا، أَوْ سَمِعَهَا ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أَي لِهَم، وَالإِظْهَارُ لِلإِذَانِ بِتَجَاوُزِهِمُ الْحَدَّ، فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وَهُوَ عَذَابُ الآخِرَةِ، وَيَحْتَمِلُ الْعَذَابَ الدُّنْيَوِيَّ وَالْآخِرَوِيَّ، عَلَى جَمِيعِ الظَّالِمِينَ، فَيَدْخُلُ فِي زَمْرَتِهِمْ قَرِيشٌ.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٣٨﴾

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَذَّبُوهُ، فَهَمُ حَوْلَ الرَّسِّ - وَهِيَ الْبِئْرُ الَّتِي لَمْ تُطَوَّرْ بَعْدَ - إِذْ انْهَارَتْ فَخَسَفَ بِهِمْ وَبَدْيَارِهِمْ وَأَهْلَكُوا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ﴿وَقُرُونًا﴾ أَي أَهْلُ قُرُونٍ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أَي بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَّمِ الطَّاغِيَةِ الْمَكْذُوبَةِ ﴿كَثِيرًا﴾ لَا يَعْلَمُ مَقْدَارَهَا إِلَّا الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ أَهْلَكْنَاهُمْ.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا﴾ ﴿٣٩﴾

﴿وَكُلًّا﴾ أَي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ﴿ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ﴾ أَي بَيَّنَّا لَهُمُ الْقِصَصَ الْعَجِيبَةَ الزَّاجِرَةَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَلَمْ نَهْلِكْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْإِنذَارِ ﴿وَكُلًّا﴾ أَي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ﴿تَبَرْنَا تَنْبِيرًا﴾ عَجِيبًا هَائِلًا، لِمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَأَثَرُوا بِذَلِكَ، وَتَمَادَوْا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرَانِ وَالْعِدْوَانِ، وَأَصْلُ التَّبِيرِ: التَّفْتِيتُ، وَمِنْهُ التَّبْرُ لِفَتَاتِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.

﴿وَلَقَدْ أَنْوَأْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٠﴾

﴿وَلَقَدْ أَنْوَأْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مَسْوُوقَةٌ لِبَيَانِ مَشَاهِدَاتِهِمْ لِآثَارِ هَلَاكِ بَعْضِ الْأُمَّمِ الْمُتَّبِرَةِ، وَعَدَمِ اتِّعَازِهِمْ بِهَا، أَي وَبِاللَّهِ لَقَدْ أَتَى قَرِيشَ فِي مِتَاجِرِهِمْ إِلَى الشَّامِ، عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي ﴿أَمْطَرْنَا﴾ أَي أَهْلَكْتُ ﴿مَطَرَ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ بعد الحديث عن التوحيد، والنبوة، وأحوال القيامة، ذكر تعالى القصص على السُّنَّةِ المعلومة في طريقة القرآن لتأكيد ما مر من التسلية، والوعد بالهداية والنصر، كأنه قيل: لست يا رسول الله بأول من أرسلناه فكُذِّب، وآتيناه الآيات فُرِّدًا، فقد آتينا موسى التوراة، وقوَّيناه بأخيه، ومع ذلك فقد كُذِّب ورُدَّ، واللامُ جوابُ القسم، أي وبالله لقد آتينا موسى الكتاب يعني التوراة ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ أي وأعتاه بأخيه هارون فأرسلناه معه وزيراً، يؤازره ويعاونه في تبليغ الدعوة.

﴿ فَكُنَّا أَهْبَاءً إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾.

﴿ فَكُنَّا ﴾ لهما حينئذ ﴿ أَهْبَاءً إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي اذهبا إلى فرعون الطاغية وقومه المكذبين، بالآيات الباهرات، هي المعجزات التسع ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم، فاقصر على ذكر أولها وآخرها، لأن المقصود من القصة، وهو إلزام الحجة، ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم لهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي ودمرنا قوم نوح ﴿ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ ﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، لما كذبوا رسولهم نوحاً، وجعلناهم عبرة لمن يعتبر، وإنما قال (الرسل) بالجمع، مع أنهم كذبوا نوحاً وحده، لأن في تكذيبه تكذيبهم جميعاً، لاتفاقهم على التوحيد ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ استئناف مبينٌ لكيفية تدميرهم ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ أي جعلنا قصتهم ﴿ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ عظيمة يعتبر بها

عليهم إجراء أحكامها ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي فصلناه تفصيلاً بديعاً، وبيّناه للناس على أكمل الوجوه.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣).

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي لا يأتونك بكلام عجيب، هو مثلٌ في البطلان، يريدون به القدح في القرآن، وفي حَقِّك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ في مقابلته بالجواب الحق، الذي يحسم الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١) ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته، فهو أحسن بياناً وتفصيلاً من كل كلام قرؤوه.

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٤).

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ صفة للذين أوردوا هذه الاقتراحات على سبيل التعنت أي هؤلاء هم المجرمون، الذين يساقون ويسحبون إلى النار على وجوههم ﴿أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي هم سُوءُ منزلاً ومصيراً، وأخطأ ديناً وطريقاً، لأنهم على الباطل والضلال، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ (٢).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ (٣٥).

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٠.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ تسليّةٌ للرسول ﷺ، وحملٌ له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء، أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين، كذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا من مجرمي قومهم، فاصبر كما صبروا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وعد كريم له ﷺ بالظفر، والنصر على أعدائه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٢١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ القائلون هم مشركو قريش، وإيرادهم بعنوان الكفر، لذمهم به، وللإشعار بعلّة الحكم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أي هلاً أنزل كل القرآن على محمد ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؟ وبطلان هذه الكلمة الحمقاء، مما لا يكاد يخفى على أحد، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به، لا يختلف بنزوله جملة، أو متفرقاً، فبيّنة صحته، وآية كونه من عند الله، نظمه المعجز، الباقي على مر الدهور، ومن ضرورة تغير بعضها، تغير ما يطبقها، على أنّ فيه فوائد جمّة، قد أشير إلى بعض منها بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم، وبيان الحكمة في التدرّج، أي مثل ذلك التنزيل المفرّق، الذي قدحوا فيه، نزلناه تنزيلاً، ليتقوى به فؤادك على تحمل نزوله، ثم إن فيه تيسير الحفظ، وفهم المعاني، وضبط الأحكام، والوقوف على تفاصيل ما روعي فيها من الحكم والمصالح، على أنها منوطة بأسبابها، وكذلك عامة ما ورد في القرآن المجيد، من الأخبار وغيرها، متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والمقترحات، ومنها أنها لو نزلت دفعة واحدة على الخلق، يثقل

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٤.

أي والله لقد أضلني عن ذكر الله وعن الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أي مبالغاً في الخذلان، يصاحبه ويواليه حتى يوصله إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وحكم الآية عام، في كل متحابين اجتماعاً على معصية الله، عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلُ الجلّيسِ الصّالحِ، والجلّيسِ السّوءِ، كحاملِ المسكِ، ونافخِ الكبيرِ، فحاملِ المسكِ إمّا أن يُحذيكِ، وإمّا أن تبتاعِ منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبةً، ونافخِ الكبيرِ إمّا أن يُحرقِ ثيابكِ، وإمّا أن تجد منه ريحاً خبيثةً»<sup>(١)</sup> وعن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»<sup>(٢)</sup>.

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾ اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه، وبيان ما يحق بهم في الآخرة، وإيراده ﷺ بعنوان الرسالة، لتحقيق الحق، والرد على نحورهم حيث كان ما حكي عنه قد جافى رسالته ﷺ، أي قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو، بطريق البث إلى ربه عز وجل ﴿يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذين حكي عنهم ما حكي من الشنائع ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي متروكاً بالكلية، ولم يؤمنوا به، ولم يتأثروا بوعيده.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب بيع المسك ٢٧١/٤ ومسلم في البر رقم ٢٦٢٨ باب استحباب مجالسة الصالحين.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٣٣ والترمذي في الزمرد رقم ٢٣٧٩ وإسناده حسن.

﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ عضُّ اليدين والأنامل ونحوها، كنايةات عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم «عقبة بن أبي معيط» وكان يكثر المجالسة للنبي ﷺ، فدعاه يوماً إلى ضيافته، فأبى ﷺ أن يأكل من طعامه، حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان «أبي بن خلف» صديقه، فعاتبه، وقال: وجهي من وجهك حرامٌ إلا أن ترجع إلى دينك فارتد، وإما أن يُراد جنس الظالم وهو داخلٌ فيه، والمقصودُ الزجرُ للكل عن الظلم ﴿ يَكْفُورُ بِنَيْتِنِي ﴾ «يا» للتنبيه أو المنادى محذوف، أي يا هؤلاء ليتني ﴿ أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْبًا ﴾ أي طريقاً واحداً منجياً وهو طريق الحق، ولم أكن ضالاً.

﴿ يَنْوَلَّتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴾ .

﴿ يَنْوَلَّتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴾ يريد من أضله في الدنيا، فإن أريد بالظالم «عقبة» ففلان كناية عن «أبي بن خلف» وإن أريد به الجنس، فهو كناية عن كل ضالٍ، قالت الرافضة: هذا الظالم هو رجل بعينه، وإن المسلمين غيروا اسمه وكنموه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله، ولأن المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم، وذلك لا يحصل إلا بالعموم، وقول الرافضة لا يتم إلا بالطعن في القرآن، وإثبات أنه غيّر، ولا نزاع أنه كفر. وكذا المراد بقوله (فلاناً) ليس شخصاً واحداً، بل كل من أطيع في معصية الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ الآية بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرتة،

(١) سورة النبأ، آية: ٤٠ .

على طريق المقارنة والتشبيه لحال الفريقين، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم.

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُزَلُّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ أي تتفتح، وأصله تشقق ﴿ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ ﴾ أي بسبب طلوع الغمام منها، هو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ وَيُزَلُّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ﴾ عجباً بصحائف أعمال العباد.

﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ الْمَلِكُ ﴾ أي السلطنة القاهرة، والاستيلاء العام ﴿ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ ثابت ﴿ لِلرَّحْمَنِ ﴾ فائدة التقييد أن ثبوت الملك له تعالى خاصة يومئذ فتخضع له الملوك وتذل له الجبابرة، أما في الدنيا فيكون لغير الله تعالى تصرف صوري في الجملة ﴿ وَكَانَ ﴾ ذلك اليوم الرهيب ﴿ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أي شديد الهمّ والبلاء، وأما للمؤمنين فيكون عليهم بفضل الله ورحمته هيناً يسيراً<sup>(٢)</sup>، كما قال تعالى: ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَسِيرٌ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٠.

(٢) كما قال المصطفى ﷺ عن يوم القيامة، حين سُئِلَ ما أطولَ هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أحفَّ عليه من صلاة مكتوبة، يصلها في الدنيا» رواه أحمد.

بالإجرام مع الكفر، والمراد بالمجرمين هنا الكفار، الذين بلغوا غاية الإجرام، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند مشاهدتهم ما يحق بهم ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهي كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدوٍّ موفور، أو هجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، حيث يطلبون من الله أن يمنع عنهم المكروه، فكأن المعنى: نسأل الله أن يمنع ذلك عتاً منعاً ويحجره عتاً حجراً، يعني أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم، وفرغوا منهم، وقالوا ما كانوا يقولونه، وقيل: تقولها الملائكة إقناطاً لهم، بمعنى: حراماً محرماً عليكم العفو والغفران، والجنة والرضوان، والأول أظهر.

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ بيان لحال ما يعملونه في الدنيا، من مكارمهم، كقِرَى الضيف، وصلة الرحم، بتمثيل حالهم وحال أعمالهم، بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ديارهم وأموالهم فأقبل عليها بالإفساد، والتحريق، بحيث لم يدع لها عيناً، ولا أثراً، أي عمدنا إليها وأبطلناها بالكلية، والهباء: شبه غبار، يُرى في شعاع الشمس، ومثور صفته أي متفرق، أي جعلنا أعمالهم الصالحة كالغبار المنثور في الجو، شبه تعالى أعمالهم المحبطة، في الحقارة والضَّيَاع بالغبار المتطاير في الجو، لأنهم ما عملوها لوجه الله.

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ هم المؤمنون الذين وعدهم الله جنة الخلد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ المستقر: المكان الذي يستقر فيه أكثر الأوقات للتجالس والتحدث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ المقييل: المكان الذي يُؤوى إليه للاستراحة، سُميت بذلك، لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً، ولا نوم في الجنة، ولكنه سمي مكان استراحتهم مقيلاً،

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ﴾ شروع في حكاية بعض آخر، من أقاويلهم الباطلة، وبيان بطلانها، ووضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أن مثل هذا القول لا يصدر عن معتقد المصير إلى الله عز وجل ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أي الرجوع إليه تعالى بالبعث أي وقال الذين لا يتوقعون الرجوع أصلاً إلينا، والرجاء بمعنى الخوف أي لا يخافون البعث ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ ﴾ أي هلاً أنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد ﷺ ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ أي نشاهد الله جلّ وعلا فيخبرنا بأن محمداً رسوله، وكلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم، في المكابرة والعتو ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي في شأنها، حتى اجترؤوا على التفوه، بمثل هذه العظيمة ﴿ وَعَتَوْا ﴾ أي تجاوزوا الحد والظلم ﴿ عُتُوًا كَبِيرًا ﴾ أي بالغاً أقصى غايته، حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية، من غير توسط الرسول أو الملك، كما قالوا: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾؟ ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات، فذهبوا في الاقتراح كل مذهب، وفيه الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والعتو والاستكبار لا يثبت، إلا إذا طلبه الإنسان على سبيل التعنت، ومما يدل عليه أن موسى عليه السلام طلب الرؤية، وما وصفه الله تعالى بالاستكبار، والعتو، لأنه سألها شوقاً، وهؤلاء طلبوها تعنتاً واستهزاءً، ولذا وصفهم بذلك.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ عند الموت، أو يوم القيامة ﴿ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي لا يبشر يومئذ المجرمون، والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشري، و﴿ المجرمين ﴾ وضع موضع الضمير، تسجيلاً عليهم

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ جواب عن قولهم ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ والمعنى: ما أرسلنا أحداً قبلك من المرسلين، إلا آكلين وماشين، فلم يكن ذلك منافياً لرسالتهم ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ ﴾ أي بعض كفار الأمم ﴿ لِبَعْضٍ ﴾ أي بعض الرسل ﴿ فِتْنَةً ﴾ أي ابتلاءً ومحنة، كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة، من الأمم الكافرة، فتنة لرسولها المبعوث إليها، وإنما لم يصرح بذلك تعويلاً على شهادة الحال، أما تعميم الخطاب لجميع المكلفين فيآباه قوله تعالى: ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾؟ فإنه غاية للجعل المذكور، وليس ابتلاء كل أحد مغنياً بالصبر، فالمراد بهم الرسل<sup>(١)</sup>، فيحصل به تسليته ﷺ، فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا، على ابتلاء المرسلين بأمرهم، لنعلم صبركم ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ وعد كريم، للرسول ﷺ بالأجر الجزيل، لصبره الجميل، مع مزيد تشريف له.

(١) ما ذهب إليه المؤلف أن الفتنة خاصة بالرسول، وليست لجميع المكلفين، قول مرجوح، والأظهر - والله أعلم - أن الآية عامة لجميع الناس، وفي مقدمتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والمعنى: جعلنا بعضكم أيها الناس ابتلاءً ومحنة لبعض، ابتلى الله الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، والصحيح الجسم بالسقيم، والضعيف بالقوي، وهكذا ليختبر صبر الناس، ولهذا قال: ﴿ أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾؟ فالابتلاء عام لجميع الخلق، قال الحسن البصري: «يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان» ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ تعجباً مما قيل لهم، لأنهم إما ملائكة، وإما أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء، أي تنزيهاً عن الأنداد ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا ﴾ أي ما صح وما استقام لنا ﴿ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ ﴾ أي متجاوزين إياك ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ نعبدهم، فما يحق لنا ولا لأحد من الخلق، أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك، فأنت ربنا وأنت سئدنا ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ ﴾ أي ما أضللناهم، ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم، ليعرفوا حقها ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ أي غفلوا عن ذكرك، وعن تذكر آلائك، والتدبر في آياتك ﴿ وَكَانُوا ﴾ باختيارهم للأعمال السيئة ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ أي هالكين، مصدر وصف به القوم، كأنهم أصبحوا نفس الهلاك.

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي فقال الله تعالى توبيخاً لهم: فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة ﴿ بِمَا نَقُولُونَ ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي ما تملكون ﴿ صَرْفًا ﴾ دفعاً للعذاب عنكم، أي لا بالذات، ولا بالواسطة ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ أي فرداً من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم، وفيه ضربٌ من التهكم، حيث كانوا يزعمون أن المعبودين يدفعون عنهم العذاب، وينصرونهم ﴿ وَمَنْ يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أيها المكلفون كدأب هؤلاء، حيث ركبوا المكابرة والعناد: واستمروا على ما هم عليه من الفساد ﴿ نُدِقْهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ وهو عذاب النار.

الجنة ﴿لَهُمْ﴾ أي جزاء لهم في وعد الله وحكمه، لأن ما وعد الله تعالى، فهو كائن لا محالة، فحكى تحقيقه ﴿جَزَاءً﴾ على أعمالهم حسبما مر من الوعد الكريم ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلون إليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي ما يشاؤون من فنون الملاذ والمشتهيات، وأنواع النعم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ وفيه تنبيه على أن كل المرادات، لا تحصل إلا في الجنة ﴿خَالِدِينَ﴾ دائمين أبداً، فإن قلت: قد يشتهي الإنسان شيئاً، وهو لا يحصل في الجنة، كأن يشتهي الولد ونحوه، قلت: إن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر، عن أهل الجنة، ولعل كل فريق يقتنع بما أتيح له من الدرجات، ولا تمتد أعناقهم إلى فوق ذلك ﴿كَانَتْ﴾ الوعد المذكور ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً﴾ أي موعوداً حقيقياً بأن يسأل لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكر لهم بعد التقرير يوم يحشرهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي يجمعهم ومعبوديهم والأصنام التي عبدت من دون الله ﴿فَيَقُولُ﴾ الله عز وجل للمعبودين تقريراً للعبدة ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ بأن دعوتهمهم إلى عبادتكم؟ كما في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾؟ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي ضلوا بأنفسهم، لإخلاقهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشد النصيح، وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤول عنه، لبيكت عبدهم ويوبخهم على الإشراك.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ صفة لمكاناً مفيد لزيادة شدة عذابها، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء، حيث ضمَّ إلى العذاب الشديد الضيق، فإن الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، وهو السر في وصف الجنة بأنَّ عرضها السموات والأرض ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ حال، أي إذا ألقوا مكاناً ضيقاً، حال كونهم مقرَّنين قد رُبِطت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ في المكان الهائل ﴿ثُبُورًا﴾ أي يتمنون هلاكاً، وينادونه يا ثبوره، تعال فهذا أوانك.

﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ على تقدير القول، أي يُقال لهم: لا تقتصروا على ثبورٍ واحد ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة، بل ادعوا مرَّات ومرَّات، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد، يستوجب تكرير الدعاء في كل وقت وحين.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ؕ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾.

﴿قُلْ﴾ تقرّيباً لهم وتحسيراً على ما فاتهم ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي قل لهم؛ أذلك الذي ذُكر من السعير، الذي أُعِدَّ لمن كذَّب بالساعة، خيرٌ؟ (١) ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي وعدها الله للمتقين لربهم في الدنيا، وإضافة الجنة إلى الخلد، للتمييز عن جنات الدنيا ﴿كَانَتْ﴾ تلك

(١) ليس في العذاب والسعير شيء من الخير، وإنما ورد هذا بأسلوب السخرية والتهكم، وفي مثل هذا الموطن يحسن التقرّيع، كما إذا أعطى السيد عبده مالا، فتمرّد وطغى، واستكبر عن قضاء الحاجة، فيضربه سيده ضرباً شديداً، ويقول له على سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذاك؟ فهذا سخرية واستهزاء بأولئك الأشقياء!!

﴿فَسْتَلِّ بِهِ﴾ أي بتفاصيل ما ذكر إجمالاً ﴿خَيْرًا﴾ هو الله سبحانه وتعالى، الخبير بالأشياء، العالم بالحقائق، يطلعك على جلية الأمر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلَ خَيْرٍ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ قالوه لأنهم كانوا لا يطلقونه على الله تعالى، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى، ولذلك قالوا ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؟ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له، من غير أن نعرف أن المسجود له ماذا؟ ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي زادهم الأمر بالسجود للرحمن استكباراً، ونفوراً عن الحق والإيمان، وهذا من شدة الطغيان، وهذا يشبه قول الطاغية فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وما ربُّ العالمين﴾؟ كأنه لا يعرف أن هناك خالقاً للبشر.

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ هي البروج الاثني عشر، سميت به، وهي القصور العالية، لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة، وقال الحسن ومجاهد: البروج هي النجوم الكبار، كالزهرة والمشتري وعطارد

(١) هذا القول مروى عن مجاهد، ورجح بعض المفسرين أن المعنى: فاسأل عنه من هو خبير عارف برحمته وجلاله، والمراد به من عنده اطلاع على الكتب السماوية من أهل العلم، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ هي الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾  
 ﴿وَقَمَرًا مِّنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل، وهو البدر الساطع.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ  
 شُكُورًا﴾ ﴿١٦﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي خلفه، يخلف كل منهما  
 الآخر، أو بأن يتعاقبا يأتي هذا بعد هذا ﴿لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي يتذكر  
 آلاء الله تعالى، ويتفكر في بدايع صنعه، فيعلم أنه لا بد لها من صانع  
 حكيم ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أو أراد أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من  
 النعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا  
 فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(١)</sup> الآية رُوي أنه جاء رجلٌ إلى عمر بن الخطاب  
 رضي الله عنه، وقال: فاتتني الصلاة الليلة، قال: أدرك ما فاتك من ليلتك  
 في نهارك، فإن الله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ  
 أَرَادَ شُكُورًا﴾<sup>(٢)</sup>!!

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ  
 الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿١٦﴾.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خُلص عباد  
 الرحمن، وأحوالهم الدنيوية والأخروية، والإضافة للتشريف ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ

(١) سورة القصص، آية: ٧٣.

(٢) يروي أن عمر فعل هذا بنفسه، أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعتَ اليوم شيئاً لم  
 تكن تفعله!! فقال: فاتني شيء من وردي - أي صلاتي - بالليل، فأجبتُ أن أقضيه،  
 وتلا هذه الآية، ذكره الحافظ ابن كثير ٣/٣٣٦.

عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴿١٤﴾ بسكينة وتواضع، دون مَرَحٍ واختيال، وهو مصدر وصف به مبالغة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي السفهاء ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ أي قالوا قولاً يسلمون به من الأذية والإثم، والمراد به الإغضاء عن السفهاء، وترك مقابلتهم في الكلام، وهذا مستحسن شرعاً، ومروءة وعقلاً.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ وتخصيصهم بالبيتوتة، لأن العبادة بالليل أحمد، وأبعد من الرياء، أي ساجدين لربهم وقائمين، يُحيون الليل كله، أو بعضه، وفي الحديث عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة، فكأنما صلى الليل كله»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلاتهم، وفي عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي شراً دائماً، وهلاكاً لازماً، وفيه مدح لهم، ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الحق، يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم، غير محتفلين بأعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٦٥٦ وأبو داود في الصلاة رقم ٥٥٥ والترمذي في الصلاة أيضاً رقم ٢٣١ باب فضل صلاة العشاء والفجر بالجماعة.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦٠.

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئست جهنم منزلاً، ومكان إقامة لمن يدخلها ويسكنها.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ أي لم يجاوزوا حدَّ الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ أي ولم يضيّقوا تضييق الشحيح، وقيل: الإسراف: هو الإنفاق في المعاصي، والتقتير: منع الواجبات والقرب ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ أي بين الإسراف والتقتير، وسطاً وعدلاً، سُمِّي قواماً لاستقامة الطرفين، وهو ما يقام به الحاجة، ولا يفضل عنها ولا ينقص، قيل لعالم: ما البناء الذي لا سرف فيه؟ قال: ما سترك من الشمس والمطر، فقيل له: وما الطعام؟ قال ما سدَّ الجوعة، وقيل: ما اللباس؟ قال: ما ستر عورتك، ووقاك من البرد<sup>(١)</sup>.

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهاً آخر ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي حرّم قتلها ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي بسبب الحقّ المزيل لحرمتها، كالقصاص، أو الزنى بعد الإحصان، أو الردة عن الإسلام، أو السعي في الأرض بالفساد ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ أي لا يفعلون

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ملأ ابنُ آدم وعاءَ شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإذا كان لا محالة - أي لا بدَّ - فاعلاً، فثلثُ طعامه، وثلثُ لشرابه، وثلثُ لنفسه» رواه الترمذي.

فاحشة الزنى، ولا شيئاً من هذه القبائح التي جمعهن الكفرة، حيث كانوا مع إشراكهم مداومين على قتل النفس المحرمة، التي من جملتها المؤودة، ومكبين على الزنا، لا يراعون عنه أصلاً ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ وهو جزاء الإثم في الآخرة، كالوبال والنكال، وزناً ومعنى، والأثام هو الإثم وجزاؤه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله: «أيُّ الذنوبِ أكبرُ عند الله؟ قال: أن تدعو الله نِدَاءً وهو خَلْقك، قال: ثم أيُّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك!! قال: ثم أيُّ؟ قال أن تزني بحليلة جارك، فأنزل الله تعالى تصديقاً له ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ (١) الآية.

﴿يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ (١٩).

﴿يُضَعَفُ﴾ بدل من «يَلْقَى» لاتحادهما في المعنى، إذ مضاعفة العذاب هي لقاء الآثام ﴿لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ﴾ أي في ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني، ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٠).

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بالتوبة، والإيمان، والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لواحق

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٣٧٨/٨ ومسلم في الإيمان رقم ٨٦ باب كون الشرك أقبح الذنوب.

طاعاتهم، ولم يرد به تبديل السيئة بعينها حسنة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾  
اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والإثبات.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾<sup>(٧١)</sup>.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي ومن تاب عن  
المعاصي، بتركها بالكلية، والندم عليها، ودخل في الطاعات، فإن الله  
يتقبل توبته، ويكون مرضياً عند الله تعالى، يمحو الله زلته، ويرفع درجته،  
ومعنى المتاب: التوبة التامة، وهي الجمع بين ترك القبيح، وفعل  
الجميل، وكان المعنى أن توبته صادقة، لا غش فيها ولا زغل.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾<sup>(٧٢)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة،  
فيشهدون بالباطل شهادة الزور، أو لا يحضرون محاضر الكذب، فإن  
مشاهدة الباطل مشاركة فيه ﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ على طريق الاتفاق ﴿بِاللَّغْوِ﴾ أي ما  
يجب أن يلغى ويطرح، ممّا لا خير فيه ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين عنه،  
مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه، والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن  
الفواحش، والكناية عما يُستهجن التصريح به، عن أبي بكره رضي الله عنه  
قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول  
الله، قال: الإشرāk بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا  
وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها، حتى قلنا ليته سكت»<sup>(١)</sup>  
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة،  
ويستخم وجهه، ويطوف به في الأسواق.

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٢٦٥٤ ومسلم رقم ٨٧.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ﴿٧٣﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي والذين إذا وُعدوا بآيات القرآن، المنطوية على المواعظ والأحكام، أكبوا عليها سامعين بأذانٍ واعية، وعيون راعية، وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الضدِّ ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ تعريضاً بما يفعله الكفرةُ والمنافقون، حيث يتعامون ويعرضون عن آيات الذكر الحكيم.

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي اجعل لنا ذريةً سالحةً تقر بهم أعيننا، وذلك بتوفيقهم للطاعة، وحياسة الفضائل، فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله، وشاركوه فيها، يُسر بها قلبه، وتقرُّ بهم عينه، لما يشاهده من مشايعتهم له في مناهج الدين، وتوقع لحوقهم به في الجنة، حسبما وعد الله بقوله تعالى: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي اجعلنا بحيث يُقتدى بنا في إقامة وظائف الدين، بإفاضة العلم، والتوفيق للعمل، وتوحيد ﴿ إِمَامًا ﴾ لأنَّ المراد واجعل كلَّ واحد منَّا إماماً، وفي الآية ما يدلُّ على أن الرياسة في الدين، يجب أن تطلب، ويُرغب فيها، وقرَّة العين: أن يصادف قلبه من يرضاه، فتقر عينه به عن النظر إلى غيره.

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الفضائل الجليلة، والصفات النبيلة ﴿يَجْزُونَ الْعُرْفَةَ﴾ العُرْفَةُ: الدرجة العالية من المنازل، أي يُثابون أعلى منازل الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ﴾ ﴿يَمَاصِبُونَ﴾ أي بصبرهم على المشاق من ماض الطاعات، ورفض الشهوات، وتحمل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ من جهة الملائكة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي تُحييهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة، والسلامة من الآفات، ويمكن أن يكون السلام من الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ وقيل: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، الذي هو تحية الإسلام.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَاتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسَنَاتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي حسنت الجنة موضع قرار وإقامة، وهي في مقابلة قوله تعالى عن جهنم: ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي ما أسوأ ذلك، وما أحسن هذا؟.

﴿قُلْ مَا يَعْجَبُوكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿قُلْ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يبين للناس، أنَّ الفائزين بتلك النعماء، إنما نالوها بما عُدَّ من محاسنهم، ولولاها لم يُعتد بهم أي قل لهم ﴿مَا يَعْجَبُوكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي ما يكثرث ولا يحفل بكم ربي، ولا يعتني بشأنكم، لولا دعاؤكم وعبادتكم له، ولولا ذلك لكنتم وسائر البهائم سواء، ولكنه سبحانه شفيق على العباد، ولذلك أرسل إليكم الرسل، وأنزل الكتب ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي فقد كذبتم بما أخبرتكم به، وخالفتموه

أيها الكفرة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاء التكذيب، أو أثره لازماً،  
يحيق بكم لا محالة، لكفركم وضلالكم، وتكذيبكم لآيات الله.  
والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآبُ، والصلاة والسلام على  
سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»

\*\*\*



# سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكية وهي مئتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿طسّر﴾

﴿طسّر﴾ الحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن، وأنه منظوم ومركب من أمثال هذه الحروف، وقيل: اسم للسورة الكريمة، فهي تسمى سورة طسم.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي آيات الكتاب الواضح الجلي، المعجز في بيانه، الظاهر إعجازه وصحته، أو المبيّن للأحكام الشرعية.

﴿لَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

﴿لَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسَكَ﴾ لعلّ للإشفاق، أي أشفق على نفسك، ونظير هذه

الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾<sup>(١)</sup> ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لعدم إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا به.

﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ استئناف مسوق لتعليل النهي عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلق به مشيئة الله تعالى، فلا وجه للطمع فيه، والتأثر من فواته ﴿آيَةٌ﴾ أي ملجئة لهم إلى الإيمان ﴿ظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي منقادين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾<sup>(٥)</sup>.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدة تمردهم، وعدم ارعوائهم عن الكفر والتكذيب، أي ما يأتيهم من موعظة، من مواعظ القرآن الكريم تذكرهم بالله وتخوفهم عقابه، إلا جددوا إعراضاً عنها، على وجه التكذيب والاستهزاء.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي كذبوا بالقرآن تكديباً مقارناً للاستهزاء به، ولم يكتفوا بذلك، بل طعنوا فيه، فجعلوه تارةً سحراً، وأخرى شعراً، ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعبّر ﴿فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي فقد بلغوا النهاية في السخرية والتكذيب، فسوف يأتيهم عاقبة القرآن، الذي كانوا به يستهزئون، من العقوبات العاجلة والآجلة، وفي الآية تهويلٌ للعقاب، لأن النبا لا يُطلق إلا على أمرٍ وخبرٍ خطير، كقوله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾. ثم نبّه تعالى على عظمة سلطانه، وباهر قدرته

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته، فقال سبحانه:

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾؟ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض، كم أخرجنا فيها من كل صنف، حسن محمود، كثير الخير والمنفعة، مما يأكل الناس والأنعام؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم التدبر والاعتبار، قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن في ذلك الإنبات لآية عظيمة باهرة، تدل على وحدانية الله وقدرته، ونهاية سعة رحمته، وما كان أكثر قومه عليه الصلاة والسلام مؤمنين، مع ظهور الدلائل الساطعة، لغاية تماديهم في الكفر والضلالة.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو العزيز أي الغالب القاهر، القادر على الانتقام من الكفرة، الرحيم أي المبالغ في الرحمة بخلقه، حيث يمهلهم ولا يعجل لهم العقوبة مع قدرته عليهم. ثم شرع تعالى في ذكر قصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، فقال سبحانه:

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ أي اذكر يا محمد لأولئك المعرضين عن الإيمان، المكذبين بآيات الرحمن، من قومك، وقت ندائه تعالى وكلامه لموسى، ليلة رأى الشجرة والنار، حين رجع من مدين، وذكرهم بما جرى على قوم فرعون، بسبب تكذيبهم إياه، وحذرهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿أَإِنَّمِ اتَّقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي بأن ات هؤلاء الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد بني إسرائيل، وذبح أبنائهم.

﴿قَوْمَ فرعونَ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ ﴿١١﴾

﴿قَوْمَ فرعونَ﴾ بدل من القوم الظالمين أي هم قوم فرعون العتاة الجبارة ﴿الَّذينَ كَفَرُوا﴾؟ أي ألا يخافون عذاب الله وعقابه؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم، أي اتتهم زاجراً لهم فقد آن لهم أن يتقوا، وهي كلمة حث وإغراء على التقوى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿١٢﴾

﴿قَالَ﴾ متضرعاً إلى الله تعالى ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ من أول الأمر.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي يضيق صدري من تكذيبهم لي، وفي لساني عقدة، فأخشى ألا أستطيع أن أبلغهم دعوتك على الوجه الأكمل، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ﴾ أي اجعل أخي هارون رسولاً وأرسله معي ليكون عوناً لي في تبليغ الرسالة، رتب عليه السلام استدعاء ذلك على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وازدياد الحُبسة في لسانه، وليس ذلك من التعلل والتوقف في الأمر، وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به، وتمهيد عذر فيه.

﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ ﴾ أي تبعه ذنب، والمراد به قتل القبطي، وتسميته ذنباً بحسب زعمهم، كما ينبىء عنه قوله: ﴿ وَهُمْ ﴾ ﴿ فَأَخَافُ ﴾ أي إن أتيتهم وحدي ﴿ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلته قبل أداء الرسالة، وهو طلب دفع البلية قبل وقوعها، لا للتعلل أيضاً.

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِشَايِنِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا ﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى المطالبين: الدفع عن الخوف، وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب إليهما، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن، فاذهب أنت ومن استدعيته وفي قوله: ﴿ بِشَايِنِنَا ﴾ أي اذهب أنت وأخوك هارون بالمعجزات التي أيدتك بها وهي اليد، والعصا ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ أي معكما، أجراهما مجرى الجماعة، وهو جائر في اللغة، وقيل: المراد مع موسى وهارون وفرعون، فمع موسى وهارون بالعون والنصر، ومع فرعون بالقهر والكسر، وفيه مزيد تسلية لهما بضممان الحفظ والنصرة كقوله تعالى: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون، اعتبر في المعية أي سامعون ما يجري بينكما وبينه، مثل حاله عز وجل بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم، يستمع ما يجري بينهم، ليمدّ أوليائه مبالغة للوعد بالإعانة.

﴿ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾ أي فأتيا فرعون الطاغية الجبار، واثقين بالنصر والتأييد ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وإفراد الرسول لاتحاد مطلبهما أو لأنه مصدر بمعنى الرسالة وصف به، أي إننا مرسلون من رب العالمين إليك.

﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ومعنى إرسالهم: تخليتهم ليذهبوا معهما إلى الشام، ورفع يد الظلم والعدوان عنهم.

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى عليه السلام بعدما أتياه وقال له ما أمرا به ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون واستأذنا في الدخول فقال البواب لفرعون: إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام. فقال عند ذلك ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ أي في قصرنا ومنزلنا ﴿ وَلِيدًا ﴾؟ أي طفلاً ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي مكثت بين ظهرانينا سنين عديدة، ونحن نحسن إليك ونرعاك!! يروى أنه لبث فيهم اثنتي عشرة سنة، وفرّ منهم على إثر ذلك، بعد قتله القبطي، فخرج إلى أرض مدين.

﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي، فبعدهما عدّد عليه نعمته، وبيّحه بما جرى عليه من قتل خبّازه، وعظّم ذلك ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي بنعمتي، حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصي، فأسأت إلى من أحسن إليك.

﴿ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ .

﴿ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا ﴾ قال مجيباً له، مصداقاً في القتل، ومكذباً فيما نسبه

إليه من الكفر ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين، أو من المخطئين<sup>(١)</sup>، لا من الكافرين كما زعمت، لأن موسى لم يتعمد قتله، بل أراد تأديبه.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي فهربت منكم حين خفت على نفسي أن تصيبوني بمضرة أو تقتلونني ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ حكمة وفهماً ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ واختارني رسولاً إليك، فإن أمنت سلمت، وإن جحدت هلكت!! ردّ أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته، ثم كرّ على ما عدّه نعمة وهو في الحقيقة نقمة فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؟ أي تمنُّ بها عليّ ظاهراً، وهي في الحقيقة نقمة، فتعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم، وأنه السبب في وقوعي عندك، ولو تركتهم لرباني أهلي، ولم يلقوني في اليم، أو تلك نعمة تمُّها عليّ؟ وتوحيد الخطاب في تمُّها، وجمعه في ما قبله، لأن المنة منه خاصة، والخوف والفرار منه ومن ملئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ .

(١) فإن قيل: كيف قال موسى: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ والنبى لا يكون ضالاً؟ والجواب أنه عليه السلام أراد به الخطأ أي وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله، وإنما أردت دفعه، ولم يقصد الضلال عن الهدى، لأنه معصوم منذ الصغر، وقال ابن عباس: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين لأنني كنت في حالة غضب.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ ﴿ لَمَّا سَمِعَ مِنْهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ الْمَتِينَةَ، وَشَاهَدَ تَصَلُّبَهُ فِي أَمْرِهِ، وَعَدَمَ تَأَثُّرِهِ بِمَا قَدَّمَهٖ، شَرَعَ فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَى دَعْوَاهُ، فَبَدَأَ بِالِاسْتِفْسَارِ عَنِ الْمُرْسِلِ، فَقَالَ: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ حِكَايَةً لِمَا وَقَعَ فِي عِبَارَتِهِ، أَيُّ أَيِّ شَيْءٍ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي ادَّعَيْتَ أَنَّكَ رَسُولُهُ؟ مَنْكَرًا لِأَنَّ يَكُونَ لِلْعَالَمِينَ رَبًّا سِوَاهُ، حَسْبَمَا يَعْرِفُ عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ وَهُوَ سُؤَالٌ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَعَةٌ عَنْهَا، يَرِيدُ اللَّعِينُ الْمَغَالِطَةَ، أَيُّ مَا هِيَ حَقِيقَةُ اللَّهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ أَمِنْ ذَهَبٍ أَمْ فِضَّةٍ أَمْ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ؟ فَهَذَا أَجَابَهُ مُوسَى بِذِكْرِ أَفْعَالِهِ وَأَثَارِهِ.

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ ﴿ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيُّ هُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا قَالَهُ حَسْبًا لِمَادَةِ تَزْوِيرِ اللَّعِينِ، وَتَشْكِيكِهِ بِحَمْلِ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا تَحْتَ مَمْلَكَتِهِ ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ أَيُّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ الْأَشْيَاءَ بِالِدَّلِيلِ، فَكُفَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ دَلِيلًا عَلَى خَالِقِهِ!! سَأَلَ اللَّعِينُ عَنِ الْمَاهِيَةِ ﴿ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ وَمَا هُوَ شَكْلُهُ وَجِنْسُهُ؟ وَهَذِهِ مَغَالِطَةٌ مِنْهُ، فَاجَابَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ، مِنْهَا إِلَى آثَارِ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ جَلًّا وَعَلَا.

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ ﴿ فِرْعَوْنُ عِنْدَ سَمَاعِ جَوَابِهِ، خَوْفًا مِنْ تَأَثِيرِهِ فِي قُلُوبِ قَوْمِهِ ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾؟ تَعْجِيبٌ لَهُمْ مِنْ جَوَابِهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ حَقِيقٌ بِأَنَّهُ يُتَعْجَبُ مِنْهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ مَا يَقُولُهُ؟ فَاسْتَمِعُوهُ وَتَعْجَبُوا مِنْهُ؟ حَيْثُ أَسْأَلُهُ عَنِ اللَّهِ، فَيَجِيبُنِي عَنْ صِفَاتِهِ، وَيَرِيدُ

بذلك السخرية من موسى، بأنه لا يحسن الجواب، مع أن كلام فرعون هو كلام الأحمق، الذي لا يحسن حقيقة السؤال، ولو كان له عقل لقال «ومن رب العالمين» ولهذا أكد موسى عليه السلام بالجواب القاطع.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ خطأ له من ادعاء الربوبية إلى مرتبة المربوبية ﴿ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ أي هو المستحق للربوبية، ربكم ورب آبائكم السابقين، فوجودكم دليل على وجوده، وأنتم جميعاً عبيد له سبحانه، لأنه هو الذي خلقكم وصوّرکم، ولا يمكن أن يتوهم مثله، فهو واحد أحد، فرد صمد.

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون من سفاخته لَمَّا واجهه موسى عليه السلام بما ذكر، اغتاظ من ذلك، وخاف من تأثيره على قومه، فأراهم أن ما قاله عليه السلام، ممّا لا يصدر عن العقلاء، سداً لهم عن قبوله، فقال مؤكداً ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق، أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء، فيجيبني عن شيء!! وسمّاه رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطبيه (رسولكم) ترفعاً من أن يكون مرسلأ إلى نفسه.

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ تكميلاً لجوابه الأول، وتفسيراً له، وتنبهها على جهلهم، وعدم فهمهم لمعنى مقالته فإن بيان ربوبيته تعالى للسموات والأرض وما بينهما هو مظهر الألوهية، فالله عزّ وجلّ هو المتصرف في الكون، يقبّل الليل والنهار، ويسير الشمس

والقمر، وهذا هو الطريق الأمثل لمعرفة ربوبيته تعالى، فإن ذكر المشرق والمغرب، منبئاً عن شروق الشمس وغروبها، على نمط بديع، تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق، ويحركها على مدار غير المدار الذي قبله، على وجه نافع ينتظم أمور الكائنات، ويجعلها تغرب من الغرب، وهذا مشاهد يبصره العاقل والجاهل، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العقل والفهم، علمتم أن الأمر كما قلته<sup>(١)</sup>، وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشبهه على من له عقل في الجملة، فلماً تحيّر فرعون، ولم يتهيأ له أن يدفع الحجة، رجع إلى الاستعلاء، متوعداً بالبطش والعنف، وهذا منطوق الطغيان عندما لا يجد البرهان.

﴿قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾

﴿قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ لم يقنع منه عليه بترك دعوى الرسالة، حتى كلفه أن يتخذه إلهاً، لغاية عتوه في دعوى الألوهية، وهذا صريح في أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الأول، ونسبته إلى الجنون كان لنسبته عليه السلام الربوبية إلى غيره، واللام في (المسجونين) للعهد أي لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني، حيث كان يطرحهم في هوة عميقة، حتى يموتوا، ولذلك لم يقل لأسجننك.

(١) هذه من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل، كقول إبراهيم الخليل في مناظرة النمرود الذي أعطاه الله الملك ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب؟ فبهت الذي كفر﴾ وكان موسى يقول لفرعون الجبار إن كنت حقاً إلهاً فبدل نظام الحياة، واجعل الشمس تشرق من المغرب وتغرب من المشرق، فهذا هو السر في قوله: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ وقد تطف موسى ولأين أولاً طمعاً في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ في مقابلة قول فرعون: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ وكأنه يقول: أتمت المجانين لا أنا.

﴿ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَآتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾؟ أي أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء جلّي واضح على صدق دعواي، يريد به المعجزة، فإنها جامعة بين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يديه، وعلى وجود الصانع وحكمته.

﴿ قَالَ فَآتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي ائتنا بما يدل عليه كلامك !! .

﴿ فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَرَزَعَ يَدَهُ إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَرَزَعَ يَدَهُ إِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴾ أي تتلأأ كالشمس الساطعة لها شعاع من غير ضرر.

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴿٣٥﴾ ﴾؟ بهره سلطان المعجزة، وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية، إلى حضيض الخضوع لعبيده فيقول ﴿فماذا تأمرون﴾؟ يطلب منهم مؤامرتهم ومشاورتهم، بعدما كان مستقلاً في الرأي، وأظهر استشعار الخوف، من استيلائه على ملكه، ونسبة الإخراج والأرض إليهم ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ لتنفيرهم عن موسى عليه السلام.

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أحرّ أمرهما ولا تباغت قتلها خوفاً من الفتنة  
﴿ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أي وأرسل الشرطة يحشرون السحرة، ويجمعونهم  
لك من أطراف المملكة .

﴿ يَا تَأُتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ يَا تَأُتُوكَ ﴾ أي الحاشرون ﴿ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ صيغة «سَحَار»  
للمبالغة، أي فائق في فن السحر ماهر في صنعه .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ هو اليوم الذي عيّنه موسى عليه  
السلام بقوله: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ أي وقت الضحى في أول أيام العيد .

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ أي ألا تجتمعون لهذا الأمر الجليل؟  
والمراد منه استعجالهم، حثاً لهم على المبادرة إليه .

﴿ لَعَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ لَعَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ ﴾ أي نتبعهم في دينهم ﴿ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ أي إن  
غلبوا موسى، وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة، وإنما هو أن لا  
يتبعوا موسى عليه السلام .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا ﴿٤١﴾ عَظِيمًا ﴿٤٢﴾ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٣﴾ ؟ ﴾  
أي إذا غلبنا موسى ، فهل تكرمنا بإكرام جزيل ؟ .

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ لكم ذلك ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عندي إذا غلبتم موسى ، أجعلكم من خاصتي ومن جلسائي .

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ أي بعد ما قال له السحرة ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ أي ألقوا ما أنتم ملقون من السحر ، فسوف ترون عاقبة أمركم ، أراد عليه السلام التهاون في الأمر ، وترك المبالاة بهم ، ثقة بنصر الله له ، ولتظهر المعجزة على رؤوس الأشهاد ، بعد أن يبذلوا كل جهودهم لغلبته .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ قالوا ذلك ، لفرط اعتقادهم في أنفسهم ، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر ، ومرادهم أننا سنتنصر ونغلب موسى ، ونقسم على ذلك بعزة فرعون .

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ أي تتلع بسرعة الحبال والعصي ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي ما يقلبونه من وجهه بتمويههم ، فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى .

﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ .

﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٧﴾ أَي خَرُّوا سَجْدًا قَائِلِينَ: آمنا بالرب الحقيقي، الذي أخبرنا عنه موسى وهارون لا ما يزعمه فرعون المفتري على الله .

﴿ قَالَ ءَأَمْسُتُمْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرٌ كُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ .

﴿ قَالَ ءَأَمْسُتُمْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أَي قَبْلَ أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي ﴿٤٩﴾ إِنَّهُمْ لَكَبِيرٌ كُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴿٤٩﴾ أَي إِنَّهُ رَيْسُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ، فَتَوَاطَأْتُمْ عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ، أَرَادَ فِرْعَوْنُ بِهَذَا الْكَلَامِ التَّلْبِيسَ عَلَيَّ قَوْمِهِ، كَيْلًا يَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ آمَنُوا عَنِ الْبَصِيرَةِ، وَظَهَرَ حَقُّ ﴿ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هَدَّدَهُمْ بِالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ تَخْوِيفًا لَهُمْ لِيَرْجِعُوا .

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِنَّا رَتِينَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ .

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾ أَي لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ ﴿٥٠﴾ لِنَّا إِنَّا رَتِينَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ تَعْلِيلٌ لِعَدَمِ الضَّرْرِ، أَي لَا ضَيْرَ بَلْ لَنَا نَفْعٌ عَظِيمٌ، فِيمَا تَتَوَعَّدُنَا بِهِ مِنَ الْقَتْلِ، لِأَنَّهُ لَا بَدَ لَنَا مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى رَبِّنَا، فَيُشِينَا بِالصَّبْرِ عَلَيَّ مَا فَعَلْتَ بِنَا، وَيَجَازِينَا عَلَيَّ التَّوْحِيدِ .

﴿ إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لأن كنا أول المؤمنين بالله، من أتباع فرعون الكفار، ولما ثبتوا على الإيمان، نفذ فيهم فرعون حكم الإعدام، فقتلهم ليبقى له ملكه.

قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء برة.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ أي أخبرنا موسى بطريق الوحي، أن فرعون يتبعكم وجنوده مصبحين ﴿فَأَسْر﴾ أي سز بالليل بمن معك، حتى لا يدرككم قبل الوصول إلى البحر.

﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ .

﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ ﴾ حين أخبرهم بمسيرهم ﴿ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أي جامعين للعسكر ليتبعوهم، فلما اجتمعوا قال:

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ الشرذمة طائفة قليلة، استقلهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، فأرسل في أثرهم ألف ألف.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾ أي فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا بمخالفتهم لنا.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور، اعتذر بها إلى أهل المدائن، لثلا يُظن به ما يكسر من قهره وسلطانه.. قال تعالى مبيناً عاقبتهم الوخيمة:

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتِ وَعِيُونِ ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ ﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه الظالمين ﴿ مِّن جَنَّتِ وَعِيُونِ ﴾ أي بساتين كانت ممتدة على حافتي النيل، فيها الأنهار الجارية.

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ومن أموالهم الوفيرة، ومنازلهم البهية.

﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي ملكناها إياهم على طريقة تملك مال الموروث، بعد إغراق فرعون وقومه.

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ ﴾ أي فلحقوهم ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها.

﴿ فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿ فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ ﴾ أي تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ أي سيدركنا جنود فرعون ويقتلوننا، جاؤوا

بالجملة الاسمية، مؤكدة بحرفي التأكيد «إن» و «اللام» للدلالة على تحقق الإدراك واللاحق، وتحقق الهلاك والفناء.

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢٢)

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ كَلَّا ﴾ أي ارتدعوا عن ذلك، فإنهم لا يدركونكم، فإن الله وعدكم الخلاص منهم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ بالنصرة والهداية ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى طريق النجاة منهم بالكلية، روي أن قوم موسى عليه السلام قالوا يا كلیم الله: أين أمرت، وقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟.

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٣)

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ هو بحر القلزم، ويُعرف موضعها بالسويس، وهو بحر مظلم موحش لا خير فيه ﴿ فَأَنْفَلَقَ ﴾ (١) أي فضربه فانفلق، فصار اثني عشر فرقا، بعدد الأسباط ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ حاصل بالانفلاق ﴿ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ كالجبل الثابت في مقره، فدخلوا في شعابها، كل سبط في شعب منها، لثلا يتزاحموا ويتخاصموا في اقتحام الطريق.

(١) لما انفلق البحر جعله الله ييساً لموسى عليه السلام والمؤمنين، وصار فيه اثنا عشر طريقاً، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، وأمر الله موسى أن يترك البحر على حاله كما قال سبحانه: ﴿وَاتْرِكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مَغْرُقُونَ﴾ فلما خرج موسى ومن معه، وتكامل دخول أصحاب فرعون، أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه، فقال بعض المؤمنين من أصحاب موسى: ما غرق فرعون، فأمر الله البحر أن يطرح جثته، حتى نظروا إليه فتحققوا هلاكه، وكان ذلك اليوم، يوماً عظيماً من أيام الله الخالدة، ولهذا صامه موسى والمؤمنون معه، شكراً لله على نجاتهم، وإهلاك أعدائهم، ويصادف هذا اليوم يوم العاشوراء الذي حضَّ النبي ﷺ على صيامه.

﴿ وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

﴿ وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴾ أي قربنا هناك فرعون وجماعته، قربنا بعضهم من بعض، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ﴿ الْآخِرِينَ ﴾ فرعون وعساكره حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، وأصبحوا جميعاً في البحر.

﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين جميعاً، بحفظ البحر على تلك الهيئة، إلى أن عبروا.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ بإطباقه عليهم، أغرقناهم في البحر، جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في جميع ما فُصِّلَ من القصة ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون، ويقيسوا شأن الرسول ﷺ بشأن موسى عليه السلام، كيلا يحلَّ بهم مثل ما حلَّ بأولئك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ مصدقين لرسول الله، مع كل الآيات والنذر، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعد لمن عصاه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الغالب على كل ما يريده، والمبالغ في الرحمة لعباده.

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ .

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المشركين ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي خبره العظيم الهام، حسبما أوحى إليك، لتقف على عدم إيمانهم، بما يأتيهم من الآيات، شأنهم شأن جميع المكذبين، وهذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أي شيء تعبدونه؟ سألهم عن ذلك، ليني على جوابهم، أن ما يعبدونه بمعزل، من استحقاق العبادة بالكلية.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً﴾ .

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناماً، بل أطنبوا فيه قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم من الافتخار بذلك، والمراد بقولهم ﴿فَنَنْظِلُ﴾ الدوام والاستمرار على عبادتها.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ .

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾؟ أي في الوقت الذي كنتم تدعونها فيها؟.

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ﴾ .

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿أَوْ يُضُرُّونَ﴾؟ أي يضرركم بترككم لعبادتها، إذ لا بدَّ للعبادة من جلب نفع، أو دفع ضرر.

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٤)

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ اعترفوا بأنها بمعزل عن السمع، والنفع والضرر، وأظهروا أن لا سند لهم سوى التقليد أي ما علمنا وما رأينا منهم مما ذكر من الأمور، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فافتدينا بهم.

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٥)

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أنظرتهم وتأملتكم فيما فعلتم؟ ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أي ما تعبدونه من هذه الأوثان والأصنام، هل فيها شيء من صفات الإله القادر؟.

﴿ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾ (٧٦)

﴿ أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾ أي السابقون.

﴿ فَأَنَّهُمْ عَدُوِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٧)

﴿ فَأَنَّهُمْ عَدُوِّيَ ﴾ أي فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم، لما أنهم يتضررون من جهتهم، فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، لكنه عليه السلام صَوَّر الأمر في نفسه تعريضاً بهم، فإنه أنفع في النصيحة من التصريح، ويكون أدعى إلى القبول ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ استثناء منقطع أي لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وَلِيِّي في الدنيا والآخرة، يتفضَّلُ عليّ بأنواع النعم. ثم فضَّل ذلك بقوله:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨)

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ صفة لرب العالمين أي الله الذي أوجدني وخلقني،

هو الذي يهديني إلى سبيل الرشاد، لا هذه الأصنام الصماء ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي يهديني وحده إلى كل ما يهمني ويصلحني، من أمور الدين والدنيا، هداية متجددة على الاستمرار، متدرجة من مبدأ إيجاده، إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩)

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني الطعام والشراب، فهو الخالق وهو الرازق، لا هذه الأصنام والأوثان!؟.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠)

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي وإذا حلَّ بي المرض فهو سبحانه الذي يشفيني منه، ونسب المرضَ إلى نفسه، والشفاء إلى الله تعالى، مع أنها منه تعالى جميعاً، لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ وكل ذلك مراعاة للأدب مع الله سبحانه، في نسبة الخير إليه، والشرِّ إلى الإنسان، أو الشيطان.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١)

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي هو تعالى المحيي المميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني عند انتهاء أجلي، ثم يعثني يوم الحساب والجزاء.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢)

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه،

وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذر، وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، أنه لا يصلح للألوهية إلا من يفعل هذه الأفعال الجليلة.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ بعدما ذكر عليه السلام فنون الألفاظ الفائضة عليه من الله، من مبدأ خلقه إلى يوم بعثته، حمله ذلك على مناجاته تعالى طلباً للمزيد، وقد ابتداء بالثناء على الله، وذكر بعد ذلك الدعاء، وفيه تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات ﴿ حُكْمًا ﴾ أي الحكمة التي هي الكمال في العلم والعمل، بحيث يتمكن به من خلافة الحق، ورياسة الخلق ﴿ وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ووقفني لما يرشحنى للانتظام في زمرة الكاملين، الراسخين في الصلاح، واجمع بيني وبينهم في الجنة، ولقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ المراد باللسان: الثناء العاطر، والذكر الحسن، وضع اللسان موضع القول، لأن القول يكون به، أي جاهاً، وحُسن صيتٍ في الدنيا، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، وقد أجابه تعالى، ولذا لا ترى أمة من الأمم إلا وهي محبة له عليه السلام.

﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿ وَأَجْعَلْنِي ﴾ في الآخرة يوم لقائك الكريم ﴿ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي من الباقيين المخلدين فيها.

﴿ وَأَعِزَّنِي لِأَيِّئِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿وَأَغْفِرْ لآيَاتٍ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي الحائدين عن سبيل الهدى.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ أي لا تُدَلِّني ولا تُهَيِّني، يوم تبعث الخلائق للحساب، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله، وكل ذلك مبني على هضم النفس منه عليه السلام ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي الناس كافة للحساب والجزاء.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ جيء به تأكيداً للتهويل، وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي لا ينفع مال، وإن كان مصروفاً إلى وجوه البر، ولا بنون وإن كانوا صلحاء.

﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عن مرض الكفر والنفاق، ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٩٠﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، أي قُرِبَتْ الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للمؤمنين الصالحين المتقين لربهم، قُرِبَتْ لهم بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، ويعرفون بأنهم المحشورون إليها، فتفتح لهم أبوابها، وتُقَرَّبُ منهم ليشاهدوها، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ مَفْتُحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾.

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي الضالين عن طريق الحق، الذي هو الإيمان والتقوى، أي جعلت بارزة لهم، بحيث يرونها مع ما فيها من الأحوال الهائلة، ويوقنون أنهم واقعوها.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَنِمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَنِمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ في الدنيا.

﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم في هذا الموقف؟ ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾؟ بدفعه عن أنفسهم؟ وهذا سؤال تقريع وتبكيث، ولا يتوقع لهم جواب ولذلك قيل:

﴿ فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ .

﴿ فَكَبَّكِبُوا فِيهَا ﴾ أي ألقوا في الجحيم على وجوههم، مرة بعد أخرى، والكببة تكرير الكب، لتكرير معناه، كأن من ألقى في النار ينكب مرة بعد أخرى، حتى يستقر في قعرها ﴿ هُمْ ﴾ أي آلهتهم ﴿ وَالْغَاوُونَ ﴾ وفي تأخير ذكرهم رمز إلى أنهم رأوا آلهتهم المزعومة وهي تهوي إلى قعر الجحيم، ليشاهدوا حالها ومآلها.

﴿ وَجُنُودِ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

﴿ وَجُنُودِ إِبْلِيسَ ﴾ أي الشياطين الذين كانوا يغوونهم، ويوسوسون إليهم، ويحسنون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ليجتمعوا في العذاب جميعاً، حسبما كانوا مجتمعين على الضلال في الدنيا.

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾<sup>(٦٦)</sup> .

﴿ قَالُوا ﴾ أي العبداء ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي قالوا معترفين بخطئهم، في انهماكهم في الضلال، متحسرين على أنفسهم، والحال أنهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون، ويلعن بعضهم بعضاً.

﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾<sup>(٦٧)</sup> .

﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ «إِنْ» مخففة، أي إن الشأن كنا في ضلال واضح، لا خفاء فيه، ووصفهم له بالوضوح، لإظهار ندمهم وتحسرهم، وبيان عظم خطئهم مع وضوح الحق.

﴿ إِذْ تُسْوِيَكُمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٦٨)</sup> .

﴿ إِذْ تُسْوِيَكُمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي تالله لقد كنا في غاية الضلالة، إذ نسويكم أي نعدلكم أيها الأصنام برب العالمين.

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾<sup>(٦٩)</sup> .

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ منهم، والمعنى: وما صدر عنا ذلك الضلال إلا بسبب إضلالهم، والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم وهم رؤسائهم كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾<sup>(٧٠)</sup> .

﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم السلام.

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦٧ .

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ ﴿١١١﴾ .

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ الحميم من الاحتمام، وهو الاهتمام الذي يهته ما يهتهك، أي وليس لنا صديق مخلص الود، ينقذنا من عذاب الله .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُكَّرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١١٢﴾ .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ لو للتمني كأنه قيل: فليت لنا كَرَّةً أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَتُكَّرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب التمني .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١١٣﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من نبأ إبراهيم عليه السلام ﴿ لَآيَةً ﴾ لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم يا محمد، وحي صادق نازل من جهته تعالى، وعظة لمن أراد أن يتبصر بها، ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب، وأحسن تقرير، والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وكمال إشفاقه عليهم، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً، وإيقاظاً لهم، ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ومع كل هذه البراهين، لم يؤمن أكثر الناس، بل كذبوا وجحدوا واستهزؤوا .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿١١٤﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١١٥﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ تكذيبهم المرسلين، باعتبار إجماع الكل على التوحيد، فمن كذب رسولا فقد كذب سائر المرسلين، ولهذا السرّ جاء اللفظ بالجمع، مع أنهم كذبوا رسولهم نوحاً.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ إذ ظرف للتكذيب، أي حين قال لهم نوح عليه السلام ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أخوهم في النسب لا في الدين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي ألا تخافون عقاب الله، حيث تعبدون غيره؟.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من جهته تعالى ﴿ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم .  
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أمركم به من التوحيد، والطاعة لله .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على نصحي ودعائي لكم إلى الإيمان ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي أجراً أصلاً ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله تعالى، الذي بعثني لهدايتكم .  
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ التكرير للتأكيد، كأنه قال: عرفتم رسالاتي وأماناتي، فاتقوا الله وأطيعوا أمري .

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ مَن لَّكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ مَن لَّكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ أي الأقلون جاهاً ومالاً .

﴿ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر، وبناء الأحكام عليها، دون التفتيش عن بواطنهم، والشق عن قلوبهم.

﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ ﴾ أي ليست محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفية البارزة والكامنة ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ﴾ فإنه المطلع على السرائر ﴿ لَو تَشْعُرُونَ ﴾ أي لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك.

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب عما أوهمه كلامهم.

﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كالعلة له، أي ما أنا إلا رسول مبعوث لأنذر المكلفين، وأزجرهم عن الكفر والمعاصي، فكيف يتسنى لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟.

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَنْتُحِ ﴾ عما تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ من المرميين بالحجارة، قالوه في آخر الأمر، فعند ذلك حصل اليأس.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ أي كذبوني ولم يؤمنوا بي، وأصبروا علي ذلك، ولم يزدتهم دعائي إلا فراراً.

﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَبِحَنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

﴿ فَأَفْجَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ أي احكم بيننا بما يستحقه كل منا، واحكم بيننا بحكمك العادل، والفتاح: الحاكم، لأنه يفتح المستغلق ﴿ وَنَجَّيْنَا وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من إجرامهم ومن شؤم أعمالهم.

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَائِكِ الْمَشْحُونِ ﴾ .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ حسب دعائه ﴿ فِي الْفَلَائِكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي المملوء بهم، وبما لا بد لهم منه من الطعام، واللباس، وأنواع الحيوان.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ أي بعد إنجائهم أغرقنا الباقين من قومه.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه .

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٢٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٤﴾ فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ تصدير القصص به، للتنبيه على أن مبنى البعثة، هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك، وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع.

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ﴿١٢٨﴾ .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أي مكان مرتفع من الأرض، وقيل بكل طريق، والرَّيْعُ بالكسر: الطريق، والمكان المرتفع ﴿ ءَايَةً ﴾ أي بناءً شامخاً هائلاً كالعلم، للمباهاة والفخر، ولمجرد اللهو واللعب، وإظهار الجلد والقوة؟ ولهذا قال بعده ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي بنائها، أو بناءً يجتمعون إليه، ليعبثوا بمن مرَّ عليهم في الطريق، إلى هود عليه السلام.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ﴿١٢٩﴾ .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أي قصوراً مُشَيَّدةً، وحصوناً تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا، عاملين عمل من يرجو ذلك، فلذلك تُحَكِّمُونَ بنيانها.

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ ﴿١٣٠﴾ .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ أي أخذتم أخذ العقوبة ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أي متسلطين ، غاشمين، بلا رافة ولا نظر في العاقبة، أي أنهم مع ذلك السُّرف، والحرص، فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، فدلَّ ذلك على أنَّ حب الدنيا استولى عليهم، بحيث خرجوا عن حد العبودية، وهاموا حول ادعاء الربوبية، وطغَوْا وفجروا.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ ﴿١٣١﴾ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ واتركوا هذه الأفعال، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، فإنه أنفع لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٢٣﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿١٢٤﴾﴾ .

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع النعماء، أجملها أولاً ثم فصلها بقوله :

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير .  
 ﴿وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين وأنهار جارية .

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٥﴾﴾ .

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا وعظك وتذكيرك وعدمه، فإننا لن نرعوي عما نحن عليه، ومرادهم المبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه ونصحه .

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ .

﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا الذي جئنا به، وتدعوننا إليه ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي عاداتهم، كانوا يُلقَقُونَ مثله ويسطرونه، وقد سمعنا مثل هذا مراراً وتكراراً، أننا سنموت ثم نحيا، وما هذه إلا خرافات وأباطيل الأولين .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ على ما نحن من الأفعال، فلا بعث ولا حساب،  
ولا جزاء ولا عذاب.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩).

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي أصروا على ذلك ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بسببه بريح صرصر عاتية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ومع هذه البراهين القاطعة، لم يؤمن أكثر الناس، لشدة عتوهم وضلالهم.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٤٠).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿ أَلَا نُنْقُونَ ﴾ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١٤٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٤٤).

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿ أَلَا نُنْقُونَ ﴾ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١٤٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ هذه كلمة كل رسول، يذكر بها قومه، بالغاية من بعثته ورسالته.

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٤٥).

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ إنكار ونفي لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة، والمعنى أترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين، مخلّدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا على الدوام.

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ (١٤٦).

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمًا ﴾ أي في بساتين وعيون جارية، وسهول فسيحة، فيها أنواع الزروع والنخيل؟ والهضيم: اللين اللطيف الثمر وطلع هضيم: دخل بعضه في بعض، والطلع بالفتح: ما يطلع من النخلة، ثم يصير ثمرًا، والغرض توبيخهم على ترك شكر هذه النعم، كأنه يقول: أتتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء؟.

﴿ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ (١٤٩).

﴿ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ أي بطرين معجبين بصنيعهم من غير حاجة إلى سكنها؟ وظاهر هذه الآيات، يدل على أن الغالب على قوم صالح عليه السلام، هو اللذات الحالية، وهي طلب المأكول والمشروب، والمساكن الحصينة.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ أي الكبراء المجرمين الذين أسرفوا في العصيان.

﴿ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ بالكفر والظلم، وهم الذين عقروا الناقة.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (١٥٣).

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي الذين غلب على عقولهم فيخلطون، والمسحر مبالغة من المسحور، الذي أثر فيه السحر تأثيراً بليغاً.

﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٥٤).

﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي لست إلا رجلاً مثلنا، فكيف تزعم أنك رسول الله؟ ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ أي اثنتا بمعجزة تثبت لنا رسالتك، وصحة دعواك.

﴿ قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَّمَّا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (١٥٥).

﴿ قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ ﴾ أي بعد أن أخرجها الله تعالى من الصخرة، بدعائه عليه السلام حسبما مرّ تفصيله ﴿ لَّمَّا شَرِبَ ﴾ نصيب من الماء، تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء ﴿ وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاقنّبوا بشربكم، ولا تراحموها على شربها.

﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ ﴾ (١٥٦) ﴿ فَعَقَرُوْهَا فَاصْبَحُوْا نٰدِيْمِيْنَ ﴾ (١٥٧).

﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ ﴾ أي يهلككم الله عاجلاً.

﴿ فَعَقَرُوْهَا فَاصْبَحُوْا نٰدِيْمِيْنَ ﴾ أسند العقر إليهم كلهم، لما أنّ عاقرها عقر برأيهم، ولذلك عمّم العذاب، وقوله تعالى: ﴿ فاصبحوا ناديين ﴾ خوفاً من حلول العذاب، لا توبة وندماً، ولذلك لم ينفعهم الندم.

﴿ فَاخُذْهُمْ الْعَذَابُ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴾ (١٥٨) ﴿ وَاِنَّ رَبَّكَ لَهٗوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ﴾ (١٥٩) ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوْطٍ الْمُرْسَلِيْنَ ﴾ (١٦٠) ﴿ اِذْ قَالَ لَهُمْ اٰخُوهُمْ لُوْطُ اَلَا تَتَّقُوْنَ ﴾ (١٦١) ﴿ اِنِّىْ لَكُمْ رَسُوْلٌ اٰمِيْنٌ ﴾ (١٦٢) ﴿ فَاٰتَوْا اِلٰهًا وَاَطِيعُوْنَ ﴾ (١٦٣) ﴿ وَمَا اَسْتَلْكُمۡ عَلَيۡهِ مِنْ اَجْرٍ اِنَّ اَجْرِيْ اِلَّا عَلٰى رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ ﴾ (١٦٤).

﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِوْنَ ﴾ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قد مر الكلام أن تكرر هذه الآيات، للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة .

﴿ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٦٩﴾ .

﴿ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ ﴾ أي أتاتون الذكور من الناس، مع غلبة النساء وكونهن أليق بالاستمتاع ﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي من بين من عداكم من العالمين، لا يشارككم فيه غير الحيوانات .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ ﴿١٦٦﴾ .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ ﴾ من للبيان إن أريد جنس الإناث وهو الظاهر ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أي متجاوزون الحد في جميع المعاصي، وهذا من جملتها، ومتجاوزين حد الشهوة حيث زادوا على الحيوانات بالاستمتاع بالذكور .

﴿ قَالُوا لَيْن لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ ﴿١٦٧﴾ .

﴿ قَالُوا لَيْن لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ ﴾ عن تقييح أمرنا أو نهينا عنه ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أي من المنفيين من قريتنا، وكانوا يخرجون من أخرجوه على عنف وسوء حال .

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ ﴿١٦٨﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أي من المبغضين أشد البغض، وهو أبلغ من أن يقال: «إني لعملكم قال» لدلالته على أنه من زمرة الراسخين في بغضهم، ولعلّه أراد إظهار الكراهة في مساكنتهم، والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجّه إلى الله عزّ وجلّ قائلاً.

﴿ رَبِّ بِنِحِّي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦٩).

﴿ رَبِّ بِنِحِّي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤم عملهم، وغائلته.

﴿ فَنجِنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٧٠).

﴿ فَنجِنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أهل بيته ومن تبعه في الدين، بإخراجهم من بيتهم عند مشاركة حلول العذاب بهم.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ ﴾ (١٧١).

﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ هي امرأة لوط ﴿ فِي الْغَيْرِينَ ﴾ من الباقين في العذاب، لأنها كانت مائلة إلى القوم، بقيت في القرية ولم تخرج، فهلكت مع الهالكين.

﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴾ (١٧٢).

﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴾ أي أهلكتناهم أشد هلاك، بقلب ديارهم وقراهم.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴾ (١٧٣).

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ غير معهود، قيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴾ أي لمن أنذرهم لوط عليه السلام.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ \* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأيكة: الغوطة ذات الأشجار والشمار، وهي بقرب مدين، يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام، وكان مختبئاً عنهم، ولذا لم يقل تعالى «أخوهم» بل كان من نسيب أهل مدين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِيَّاكُمْ رَسُولٌ آمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقُونَ \* إِيَّاكُمْ رَسُولٌ آمِينٌ \* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، وما أجري وثوابي إلا على الله تعالى .

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أي أتموا الكيل للناس على الوجه الأكمل ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي حقوق الناس بالتطيف والبخس .

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ .

﴿ وَزِنُوا ﴾ أي الموزونات ﴿ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي بالميزان العادل .

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ .

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تُنقصوا شيئاً من حقوقهم، أي حق كان، وهذا تعميم بعد تخصيص، لغاية انهماكهم فيها ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل، والغارة، وقطع الطريق.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ أي والخلائق الأولين، وهم من تقدم من الخلائق. الجبلة بكسرتين الخليفة، والطبيعة يُقال: جبَّله الله على كذا، أي فطره عليه.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي المسحورين.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ إدخال الواو بين الجملتين، للدلالة على أن كلا من التسخير، والبشرية، منافٍ للرسالة، مبالغة منهم في التكذيب ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعوى النبوة والرسالة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب؛ فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه.

﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي، وبما تستحقون من

العذاب .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي ظلوا على تكذيبه وأصروا عليه ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ حسبما اقترحوا، وفي إضافة العذاب إلى «يوم الظلة» دون نفسها، إيذان بأن لهم يومئذ عذاب آخر ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي شديد هائل، عظيم في الشدة والهول .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ هذا آخر القصص السبع، المذكورة على سبيل الاختصار، تسلية للرسول ﷺ، وتهديداً للمكذبين به، فإن كل هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته تعالى، وما كان أكثرهم مؤمنين، بعدما سمعوها، واستمروا على ما كانوا عليه من الضلال، وهذا نهاية الطغيان .

﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ .

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي هذا القرآن المعجز وما ذكر فيه من الآيات الكريمة، الناطقة بالقصص الإلهي ﴿ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي منزلٌ من جهته تعالى، وإنزاله من أحكام تربيته تعالى للعالم ورأفته بالكل .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ .

﴿ نَزَّلَ بِهِ ﴾ أي أنزله ﴿ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ جبرائيل عليه السلام، فإنه أمين وحيه تعالى، وموصله إلى أنبيائه.

﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (١٩٨)

﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أي روحك لأن المعاني الروحانية، تنزل أولاً على الروح، ثم تنتقل منه إلى القلب، لما بينهما من التعلق، أي أثبتته في قلبك إثبات ما لا يُنسى كقوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ وإنما قال: ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ وإن كان إنما أنزله عليه، ليؤكد به أن ذلك المنزل، محفوظ للرسول، متمكن في قلبه، لا يُمحى، ولأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك أودعه الله في قلبه، دون سمعه وسائر حواسه، لأن القلب مكان الحفظ والإدراك ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أي أنزله لتنذر الكافرين بما في تضاعيفه من العقوبات لينزجروا عن غيهم.

﴿ يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (١٩٩)

﴿ يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ واضح المعنى، لثلا يبقى لهم عذر، ولو نزل بغير لغتهم العربية، لقالوا: ما فائدة كلام لا نعرفه ولا نفهمه؟ فلذلك أنزله الله عزَّ وجل باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بيتاً واضحاً، حجة على صدق الرسول الأمي، فقد كان العرب فرسان البلاغة، وملوك البيان، وجاءهم القرآن بما أخرسهم وأعجزهم عن مجاراته.

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٠٠)

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره، لفي الكتب المتقدمة، للأنبياء السابقين، فإن أحكامه التي لا تحتمل النسخ، من

التوحيد، وما يتعلق بالذات والصفات، مسطورة فيها، وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص.

﴿ أَوْلَٰئِكَ هُمۡ ءَايَةٌ أَنۢ يَّعْلَمُوۡا بَنِيۤ إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ (١٩٧)

﴿ أَوْلَٰئِكَ هُمۡ ءَايَةٌ ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر، كأنه قيل: أغفلوا عن ذلك، ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين، وأنه لفي كتب الأولين ﴿ أَنۢ يَّعْلَمُوۡا بَنِيۤ إِسْرَءِيلَ ﴾؟ أي أن يعرفوه بنعوتهم المذكورة في كتبهم، ويعرفوا ما أنزل عليه؟ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: بعث أهل مكة إلى اليهود - وهم بالمدينة - يسألونهم عنه ﷺ فقالوا: إن هذا لزمانه، وإننا لنجد في التوراة نعته وصفته.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ ﴾ (١٩٨)

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ﴾ أي القرآن كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية، فقرأه على كفار مكة، قراءة صحيحة فصيحة لما آمنوا، والآية لبيان تماديهم بالمكابرة والعناد.

﴿ فَفَرَّامُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ (١٩٩)

﴿ فَفَرَّامُ عَلَيْهِم ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادة ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع إعجاز القرآن بانضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، لفرط عنادهم ومكابرتهم.

﴿ كَذٰلِكَ سَلَكَۤنَّهٗ فِى قُلُوۡبِ الْمُجْرِمِیۡنَ ۖ ﴾ (٢٠٠)

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي مثل ذلك السلك البديع سلكناه، أي أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، ففهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه خارج عن القوى البشرية، من حيث النظم المعجز، ومن حيث الإخبار عن الغيب، وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتب، على تضمنها للبشارة بإنزاله، وبعثة من أنزل عليه بأوصافه.

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ﴿٢٠١﴾ .

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ مسوق لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور، الداعية إلى الإيمان به، بل يستمرون على ما هم عليه، حتى يروا العذاب الأليم، الملجئ إلى الإيمان به، حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٢٠٢﴾ .

﴿ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه.

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ ﴿٢٠٣﴾ .

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال، لتلافي ما فرطوا في جنبه.

﴿ أَفِعْدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴾ ﴿٢٠٤﴾ .

﴿ أَفِعْدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴾ بقولهم تارة: ﴿ أَمْ طُرِّ عَلَيْنَا جِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ وتارة بقولهم: ﴿ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي أفیکون حالهم كما ذكر من الاستنظار، عند نزول العذاب، فيستعجلون بعذابنا؟ وبينهما من التنافي ما لا يخفى،

لأنهم كانوا يستعجلون العذاب في الدنيا، وعند نزول العذاب في الآخرة، يطلبون النظر والإمهال.

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أي أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له ﴿ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ متطاولة بطول الأعمار، وطيب المعاش.

﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ .

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي أي شيء أغنى عنهم ﴿ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴾ أي كونهم ممتعين ذلك التمتع المديد؟ والاستفهام للإنكار والنفي<sup>(١)</sup>.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ من القرى المهلكة ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ قد أذروا أهلها، إلزاماً للحجة.

﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ .

(١) معنى الآية الكريمة: أرايت إن متعناهم تلك السنين الطويلة، مع وفور الصحة، ورغد العيش، ثم جاءهم العذاب الذي وعدوا به، ماذا ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟.

﴿ ذِكْرًا ﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكرة، وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم، لأننا أقمنا الحجة عليهم، وأعدرنا إليهم ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتعبير عنه بذلك، لبيان كمال نزاهته تعالى عن الظلم.

﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿٢١٦﴾ .

﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ردُّ لما زعمه الكفرة، في القرآن الكريم، من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة، بعد تحقيق الحق، ببيان أنه نزل به الروح الأمين.

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿٢١٧﴾ .

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ أي ما يصحُّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ذلك أصلاً.

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ ﴾ ﴿٢١٧﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ ﴾ أي الشياطين عن سماع كلام الملائكة ﴿ لَمَعزُولُونَ ﴾ لانتهاء المشاركة بينهم وبين الملائكة، في صفاء الذات، والاستعداد لقبول فيضان نور الحق، كيف لا ونفوسهم ظلمانية شريرة، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم، المنطوي على الحقائق الرائقة، التي لا يمكن تلقاها إلا من الملائكة.

﴿ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ ﴿٢١٧﴾ .

﴿ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ خوطب به الرسول ﷺ، مع

استحالة صدور المنهي عنه عنه ﷺ تهييجاً، وحثاً على ازدياد الإخلاص، ولطفاً لسائر المكلفين، ولأن من شأن الحكيم، إذا أراد أن يؤكد الخطاب، يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود هم الأتباع.

### ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢١٤)

﴿ وَأَنْذِرْ ﴾ العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقرب منهم، فالأقرب، لأن الاهتمام أولاً بشأنهم أهم، روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون من قريش، حتى اجتمعوا فقال ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً، فقال: فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد، فقال أبو لهب تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تبت يدا أبي لهبٍ وتبَّ ﴾»<sup>(١)</sup>.

### ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢١٥)

﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ليّن جانبك لهم، وتواضع، مستعازاً من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن ينحط، خفض جناحه، والمراد تواضع لأتباعك المؤمنين.

### ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنْ بَرِئْتُ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢١٦)

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٣٨٥ / ٨ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠٨ باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ لم يتبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مما تعملونه من الكفر والإجرام.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أي الذي يقدر على قهر أعدائه، ونصر أوليائه، وكيفك شرًّا من يعصيك.

﴿ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ .

﴿ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى التهجد في ظلمة الليل.

﴿ وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّجِدِينَ ﴾ .

﴿ وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّجِدِينَ ﴾ أي ويرى حركاتك مع المصلين في الجماعة في قيامك، وركوعك، وسجودك.

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما تقوله ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما تخفيه.

﴿ هَلْ أُنبِئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ .

﴿ هَلْ أُنبِئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾؟ أي هل أخبركم على من تنزل الشياطين؟ وهذا ردُّ عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين.

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ .

﴿ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي تنزل على كل كذاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ، منزّهة عن أن يحوم حولها، شائبة شيء من تلك الأوصاف، اتضح استحالة تنزيلهم عليه ﷺ.

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴾ (٢٢٣)

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أي الأفاكين، يُلقون السمع إلى الشياطين، فيتلقون منهم أوهاماً وأباطيل، لا حقيقة لها، فيضمّون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة، خرافات لا يطابق أكثرها الواقع، وذلك قوله تعالى ﴿ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴾ أي فيما قالوه من الأقاويل، ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة.

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ (٢٢٤)

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حقّ القرآن الكريم، من أنه من قبيل الشعر، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله ﷺ، بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يُلقى الشيطان على الكهنة، والمعنى: إن الشعراء ﴿ يَتَّبِعُهُمْ ﴾ أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ﴿ الْغَاوُونَ ﴾ الضالون عن السنن، الجائرون فيما يأتون وما يذرون، لا يستمرون على وتيرة واحدة، في الأقوال والأفعال والأحوال.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ (٢٢٥)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال يهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيل معين بل يتحiron، ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية، والقدح في الأنساب الطاهرة، والتفريط في المدح والهجاء، وكما قيل: أعذب الشعر أكذبُه.

﴿ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٢٢٧﴾ .

﴿ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفاعيل، غير مبالين بما يستتبعه من اللوائيم، فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم، من اتصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وهو النبي المعصوم محمد رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه؟ .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ﴿٢٢٧﴾ .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد، والثناء على الله تعالى، والحث على طاعته، والحكمة والموعظة الحسنة، ولو وقع منهم في بعض الأوقات ذم وهجو، وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم. روى الشيخان عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان: «اهج المشركين، فإن جبريل معك»<sup>(١)</sup> وروى البخاري عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حكمة»<sup>(٢)</sup> وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه قائماً، يفاخر عن

(١) أخرجه البخاري ٤٥٣/١٠ في الأدب ومسلم رقم ٢٤٨٦ في فضائل الصحابة «باب فضل حسان» .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ٤٤٥/١٠، وأبو داود رقم ٥٠١٠ باب ما جاء في الشعر.

رسول الله ﷺ وينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس، ما نافح عن رسوله»<sup>(١)</sup>.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لما في ﴿سيعلم﴾ من تهويل وفي ﴿الذين ظلموا﴾ من الإطلاق والتعميم، وفي ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ من الإبهام والتهويل، أي أي مرجع يرجعون إليه؟. يعني أن الذين ظلموا أنفسهم، وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون إليه؟

والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء»

\*\*\*

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠١٥، والترمذي رقم ٢٨٤٩ باب ما جاء في إنشاء الشعر، وروى بعضه البخاري وانظر جامع الأصول ١٧٤/٥.



# سُورَةُ النَّاسِ

مكية وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ طَسَّ ﴾ بالتفخيم، والكلام فيه كالذي مرَّ في نظائره<sup>(١)</sup> ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى نفس السورة، لأنها التي نوهت بذكر اسمها، أي هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد، هي ﴿ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ ﴾ أي آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه ﴿ وَكِتَابٍ ﴾ أي كتاب عظيم الشأن ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أي ظاهر إعجازه وصحته، موضح لما في تضاعيفه من الحكم والأحكام، أبان الله فيه الأحكام، وهدى الأنام.

﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حال من الآيات، مصدران أقيما مقام الفاعل للمبالغة، كأنهما نفس الهدى والبشارة، أي هادية ومبشرة لهم، تزيدهم

(١) أن المراد بالحروف المقطعة، هو الإشارة والتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، فهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وانظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.

هدى، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٣).

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ صفة مادحة لهم ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات، هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم، فإن تحمل المشاق في العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ بيان لأحوال الكفرة، أي الذين لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع، محبوبة للنفس كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (١) كما ينبيء عنه قوله ﷺ: «حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (٢) ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يتحIRON ويترددون في الاشتغال بها، من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضرر.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ﴾ (٥).

﴿أُولَئِكَ﴾ أي الموصوفون بالكفر والعمه ﴿الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

(٢) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٢ ولفظه «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» وأخرجه البخاري في الرقاق ٢٧٤/١١ بلفظ «حجبت الجنة بالمكاره وحُجبت النار بالشهوات».

في الدنيا، كالقتل، والأسر ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ﴾ أي أشد الناس خسراناً، لفوات الثواب، واستحقاق العقاب.

﴿وَإِنَّكَ لَلتَّلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٦﴾

﴿وَإِنَّكَ لَلتَّلَقَى الْقُرْآنَ﴾ أكده بحرفي التأكيد، «إِنَّ» و «اللَّام» لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي لثعطاه بطريق التلقية والتلقين ﴿مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي أي حكيم، وأي عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علو طبقته ﷺ، ومعرفته، والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، فإن من تلقى العلوم والحكم، من مثل ذلك الحكيم العليم، يكون علمه في رصانة العلم والحكمة، وهذه الآية كالتمهيد لما يسوق بعدها من الأفاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنيَ ءَانَسْتُ نَارًا سَتَاتِكُمْ مِنهَا بِخَبْرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿٧﴾

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ عند مسيره من مدين إلى مصر، في وادي طوى، وقد غشيتهم ظلمة الليل، فبدا له من جانب الطور نار ﴿إنيَ ءَانَسْتُ نَارًا سَتَاتِكُمْ مِنهَا بِخَبْرٍ﴾ أي عن حال الطريق، وقد كانوا ضيِّعوه وقوله: ﴿لأهله﴾ يدل على أنه لم يكن مع موسى غير أهله، والجمع للتعظيم مبالغة في التسلية ﴿أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي بشعلة نار مقبوسة، أي مأخوذة من أصلها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها، وذلك يدل على حاجة بهم إلى الاصطلاء، وهذا لا يكون إلا في برد شديد.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ ﴾ أي من جانب الطور ﴿ أَنْ بُورِكَ ﴾ أي قُدِّس وجُعِلت فيه البركة والخير ﴿ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ أي من في مكان النار، وهي البقعة المباركة المذكورة، في قوله تعالى: ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾<sup>(١)</sup> والمراد بمن في النار الملائكة، ومن حول مكانها موسى عليه السلام ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي ومن حول مكانها، وتصدير الكلام بذلك، بشارة بأنه قد قُضِيَ له أمر عظيم، تنشر بركاته في أقطار هذه البقعة، وقيل هذه تحية من الله تعالى لموسى بالبركة ﴿ وَسُبِّحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك، أي تقدَّس وتنزه الرب الجليل، العليُّ الشأن، رب الخلائق أجمعين، وسأل موسى من المنادي فجاءه الجواب.

﴿ يَمْوَسِيٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ يَمْوَسِيٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ذكر «العزير» و«الحكيم» تمهيداً للمعجزات التي سيظهرها الله على يديه، أي أنا القوي القادر، الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة، ودقة فائقة .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسِيٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي نودي أن بورك، وأن ألق عصاك ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ هناك محذوف، كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حية تسعى، فلما أبصرها متحركة بسرعة ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ أي حية خفيفة سريعة الحركة ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي ولم يرجع على عقبه بعد الفرار، وإنما اعتراه

(١) سورة القصص، آية: ٣٠.

الرعب، لظنه أن ذلك لأمر أريد به، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي أقبل ولا تخف لأنك بحضرة قدسي ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا يخافون حين يُوحى إليهم، لأنهم رسلي الذين اصطفتيتهم، فإنهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤونه تعالى، لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلاً، وأما في سائر الأحيان، فهم أخوف الناس منه سبحانه وتعالى، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَأِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَأِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من ظلم من سائر الناس وارتكب ذنباً، فإنه يخاف، إلا إذا تاب وبدل عمله السيئ بالعمل الحسن، فإن الله تعالى عظيم المغفرة، واسع الرحمة له، نبيه تعالى على أن من آمنه الله بالنبوة، لا ينبغي أن يخاف من أحد، لا من جبار ولا من حية.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِذْ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي آفة كبرص ونحوه ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي ضمن تسع معجزات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي مرسلأ إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِ إِذْ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال أي خارجين عن حد الطاعة والإيمان، إلى الكفر والطغيان.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات، وظهرت على يد موسى عليه السلام ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بيّنة واضحة، اسم فاعل أطلق على

المفعول، إشعاراً بأنَّ وضوحها ظاهر، كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يُبصر ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَمِنٌ﴾ أي واضح سحريتها.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤).

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أي كذبوا بها ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا﴾ الواو للحال، أي وقد استيقنتها أي علمتها ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ علماً يقينياً ﴿ظُلْمًا﴾ أي ظلماً من أنفسهم حيث سموها سحراً ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي استكباراً عن الإيمان بها ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر بعين الاعتبار، نهاية أولئك الطاغين، من الإغراق ثم الإحراق.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أي لقد أعطينا داود وابنه سليمان عليهما السلام، علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، علم كلام الطير، والنمل، والدواب، وخصصناهما بخصائص جلية من تسخير الإنس والجن والشياطين، ووهبناهما مع النبوة المُلْك، فضلاً منا ونعمة، أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم، من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص بكل منهما ﴿وَقَالَا﴾ أي كل منهما شكراً لما أُوتيه من العلم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فَضَّلْنَا بما أُوتينا من العلم، على كثير من الخلق، وفيه دليلٌ على فضل العلم، وشرف أهله، حيث شكرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبروا دونه ما أُوتيا من المُلْك، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمداوا الله تعالى، على ما آتاهم

من فضله، ويتواضعوا، ويعتقدوا أنهم وإن فُضّلوا على كثير، فقد فُضّل عليهم كثير، وفوق كل ذي علم عليم.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُمِينُ﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ أي ورثه النبوة والعلم، دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر ﴿وَقَالَ﴾ تشهيراً لنعمة الله بذكر المعجزات التي أوتيتها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ المنطقُ: كل ما يُصَوِّتُ به، يقال: نطقت الحمامة، وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم بأصواته، والذي علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير، هو ما يفهم بعضه من بعض، أي عَلِمْنَا فهِمَ ما يقوله كلُّ طائر، وعرفنا صوت كل حيوان، حكى أنه عليه السلام مرَّ بببليل يشدو ويرقص، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله أعلم! قال: يقول: أكلتُ نصف ثمرة، فعلى الدنيا العَفَاءُ، أي الانقراض والفناء، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تَدِينُ تُدان، وصاح حُطَّاف فقال: يقول: قدِّموا خيراً تجدوه، والمراد بكل شيء كثرة ما أُوتِي، وقال ابن عباس رضي الله عنه: كل ما يهتَمُّ من أمور الدنيا ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُمِينُ﴾ أي هو فضل وإحسان من الله تعالى واضح علينا، قاله شكراً لا فخرأ.

﴿وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

﴿وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ أي جُمع له عساكره من الجن، والإنس، والطير، وتقديم الجن في البيان، للإيذان بكمال قوة سلطانه، لما أن الجنَّ عاتيةٌ، بعيدةٌ من الحشر والتسخير ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أوائلهم على أواخرهم، ليكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ واد في الشام كثير النمل، والمراد بالإتيان عليه قطعهُ، أي أشرفوا على قطع الوادي واجتيازه ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ جواب إذا كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي، فَوَّتْ منهم، فصاحت صيحة نَبَّهت بها النمل، فتبعها في الفرار، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، ولهذا أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ ولا يمتنع أن يخلق الله فيها النطق، وفيما عداها العقل والفهم ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ نهى في الحقيقة للنمل، عن التأخر في دخول مساكنهم، وإن كان يحسب الظاهر نهياً له عليه السلام عن الحطْم، كقولهم: لا أرينك ههنا، أي لا يدوسنكم ويكسرنكم جنود سليمان بأقدامهم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون إهلاككم عن عمد، كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الإيذاء والظلم فقالت ذلك<sup>(١)</sup>.

﴿ فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

(١) نَبَّهت هذه النملة، ثم حَدَّرت، ثم اعتذرت بقولها: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ لأنها علمت أنه نبي رحيم، لا يصدر منه ومن جنوده الأذى عن عمد، فيألفها من نملة ذكية، فقولها: ﴿ يا أيها النمل ﴾ تنبيه: ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾ إرشاد: ﴿ لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ تحذير: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ اعتذار، وهذا غاية الفهم والعقل!! والنمل تعرف كثيراً من منافعها، ومن ذلك أنها تكسر الحبة قطعيتين لثلاث تنبت، وإذا وصلت الندوة إلى الحبة، تخرجها من جحرها إلى الشمس حتى تجف، فسبحان من ألهمها الفهم والذكاء!!

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ يعني تبسم شارعاً في الضحك، بمعنى أنه قد تجاوز حد التبسم، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم، تبسم تعجباً من حذرهما، واهتدائها إلى تدبير مصالحتها، ومصالح بني جنسها، وابتهاجاً بما خصّه الله تعالى به، من إدراك همسها، وفهم مرادها ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي اجعلني أزرع شكر نعمتك عندي، وأربطه بحيث لا ينفك عني، حتى لا أنفك عن شكرك أصلاً، أدرج فيه ذكر أبويه تكثيراً للنعماء، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجبٌ للشكر ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي وفقني لعمل الخير والصالحات، إتماماً للشكر، واستدامة للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي في جملتهم، أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ الَّتِي هِيَ دَارُ الصَّالِحِينَ.

﴿وَنَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنِ

الْعَائِبِينَ﴾.

﴿وَنَفَقَدَ الطَّيْرَ﴾ أي تعرّف أحوال الطير، فلم ير الهدد بينها ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ﴾ أي ما لي لا أراه ههنا؟ لسائر ستره؟ ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْعَائِبِينَ﴾؟ أي بل هو غائب ذهب بغير إذني.

﴿لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٍ

مُؤَيِّنٍ﴾.

﴿لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه، وقيل: بالتفريق بينه وبين إلفه ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٍ مُّؤَيِّنٍ﴾ أي بحجة واضحة تبين عذره، قيل: إنه عليه السلام، لما أتم بناء بيت المقدس، تجهز للحج بجنده، فوافى الحرم، وأقام به ما شاء، ثم عزم على السير إلى اليمن، فوافى صنعاء،

فرآها أرضاً حسنة، فنزل ليصلي بها، ولم يجد الماء، فكان الهدهدُ رائدَه، لأنه يحسن طلبَ الماء، فتفقده لذلك فلم يجده.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ (٢٢)

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي مكث زماناً غير مديد، يريد به الدلالة على سرعة رجوعه، فلما رجع حدثه عما لقي في غيبته ﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي علمتُ ما لم تعلم، وبلغتُ ما لم تبلغ أنت ولا جنودك، ولاخفاء في أنه لم يرد الإحاطة بحقائق العلوم، حتى يكون إثباتها لنفسه، بين يدي نبيِّ الله تجاوزاً عن دائرة قدره، بل أراد به الأمور المحسوسة، التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة، والغفلة عنها نقیصة، لعدم توقف إدراكها على العلم، بل على مجرد الإحساس وقد علم أنه عليه السلام لم يشاهده، فعبر عنه بما ذكر، لترويج كلامه عنده، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ أي بخبرٍ خطيرٍ محقق، فسّر إبهامه، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له، حيث عبر عنه بالنبأ، الذي هو الخبر الخطير، و«سبأ» اسم لحَيٍّ سَمُوا باسم أبيهم الأكبر، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، ثم أنشأ يخبره عما رأى من عجائب فقال:

﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣)

﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك، وكان أبوها ملك اليمن، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت بعده على المُلْك، ودانت لها الأمة، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس

والكواكب ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من الجند، والخيال، والمال ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي لها سرير ضخم مكلل بالدر والياقوت، واستعظام الهدهد لعرشها، مع ما كان يشاهده من ملك سليمان، لما مرّ من ترغيبه في الإصغاء إلى حديثه، وتوجيه عزمته عليه السلام لقتالها، ولذلك عقبه بما يوجب غزوها، لكفرها وكفر قومها، حيث قال:

﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ أي يعبدون الشمس ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي يعبدون ويسجدون لها من دون الله ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التي هي عبادة الشمس وسجودهم لها، والسير في طريق الضلال ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي سبيل الحق والصواب ﴿ فَهُمْ ﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان ﴿ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجباً:

﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ أي أيسجدون للشمس، ولا يسجدون لله الخالق العظيم؟ ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي يُظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما، وهو يتناول جميع الأرزاق، والأشياء، وتخصيص هذا الوصف بالذكر، لما أنه أرسخ في معرفته تعالى، والإحاطة بكمال القدرة والعلم، بمشاهدة آثاره التي من جملتها ما أودع الله في الهدهد من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض، والحبء: ما خفي في غيره، وإخراجه: إظهاره ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ويعلم السرّ والعلن، لا تخفى عليه

خافية، إلى أنه تعالى يخرج ما في الإنسان من الخفايا، كما يخرج ما في العالم من الخبايا، وإلى هنا انتهى حديث الهدهد.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ؟ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربُّ العرش العظيم، الذي أحاط بالكرسي وبالسموات والأرض، المستحق للعبادة والسجود، فكيف يتركون عبادة هذا الخالق، العظيم الشأن، إلى عبادة الشمس من دون الله؟ وخصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، فهو أعظم من السماوات والأرض وما بينهما، وإذا كان الكرسي قد أحاط بالسماوات والأرض بنص القرآن الكريم ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ وهو بالنسبة إلى العرش كحلقة ألقيت في صحراء، لا يعلم مداها إلا الله، فكيف بالعرش العظيم؟ ولهذا وُصف بالعظيم في آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم﴾؟

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿سَنَنْظُرُ﴾ فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل أي سنتعرف بالتجربة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؟ هل أنت صادق أم كاذب فيما تقول؟ ومساق هذه الأقاويل على ترتيب أنيق، يستميل قلوب السامعين، فكتب سليمان عليه السلام كتاباً إلى بلقيس ملكة سبأ، ثم دفعه إلى الهدهد، وقال له:

﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا ﴾ أي اذهب بهذا الكتاب، وأوصله إلى ملكة سبأ

وجندها، وتخصيصه إياه بالرسالة، دون غيره من أبناء الجن الأقوياء، لما عاين فيه من مخايل العلم والفراسة، ولثلا يبقى له عذر أصلاً ﴿ فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أي تنحَّ إلى مكان قريب، تتوارى فيه ﴿ فَأَنْظَرَ ﴾ أي تأمل وتعرف ﴿ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وصورة الكتاب «من عبد الله سليمان بن داود، إلى ملكة سبأ، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من أتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ واثتوني مسلمين» وطبعه بالمسك وختمه.

﴿ قَالَتْ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُوْا إِلَيْهِ أَلْفَى إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ .

﴿ قَالَتْ ﴾ أي بعدما ذهب الهدهد بالكتاب، فألقاه إليها، وتنحى عنهم حسبما أمر به، وإنما طوى ذكره إيداناً بكمال مسارعتة إلى ما أمر به وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره، روي أنه وجدها راقدة في قصرها، وغلقت الأبواب، فدخل في كوة، وطرح الكتاب على نحرها، فانتبهت فرعة، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، فعند ذلك قالت لأشرف قومه ﴿ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُوْا إِلَيْهِ أَلْفَى إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ وصفته بالكرم لكونه من عند ملك كريم.

﴿ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾ استئناف وقع جواباً لسؤال مقدر، كأنه قيل: ممن هو؟ وماذا مضمونه؟ فقالت: إنه من سليمان ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أي مكتوب فيه.

﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيَّ ﴾ أي لا تتكبروا عليَّ كما يفعل جبابرة الملوك ﴿ وَأَتُونِي ﴾

مُسْلِمِينَ ﴿ أَي مُؤْمِنِينَ، مستسلمين لدعوة الله، وهذا الكلام في غاية الوجازة، مع كمال الدلالة على المقصود، وكذلك جميع كتب الأنبياء، لأنهم أعطوا بياناً وحكمة، والمعنى: لا تمتنعوا من الإجابة، فإن تركها من العلو والتكبر.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ (٢٢).

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ أي أجيبوني في أمري الذي قد أهمني، وعبرت عن الجواب بالفتوى، تهويلاً للأمر ﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ أي من الأمور المتعلقة بالملك ﴿ حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أي إلا بمحضركم قالت ذلك استمالة لقلوبهم، لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (٢٣).

﴿ قَالُوا ﴾ في جوابها ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ ﴾ في الأجساد، والآلات، والعدد ﴿ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي نجدة وشجاعة في الحرب ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أي هو موكولٌ إليك ﴿ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾؟ نكن في الخدمة مطيعين لأمرك، فلما أحست منهم الميل إلى الحرب، شرعت في تزييف مقاتلتهم، المبنية على الغفلة عن شأن سليمان ﷺ.

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٢٤).

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ من القرى عنوة على منهاج الحرب

﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَظَةً أَهْلَهَا أَذِلَّةً﴾ بالقتل، والأسر، والطرْد من الوطن وغير ذلك ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصف من حالهم، بأن ذلك من عاداتهم المستمرة.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ تقرير لرأيها، بعدما زينت آراءهم، أي وإنني سأرسل إليهم رسولا بهدية ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال، كانت بلقيس امرأة لبيبة عاقلة، قد ساست الأمور وجربتها فبعثت «منذر بن عمرو» وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأي، وأرسلت معهم هدية ثمينة، جارية وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت وقالت: إن كان نبياً ردّ الهدية ولم يأخذها، ولم نأمنه على بلادنا، وإن كان ملكاً أخذ الهدية وسكت.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتَمِدُونِنِ بِمَالٍ فَمَاءَ اتْنِ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ أي الرسول ﴿سُلَيْمَنُ قَالَ﴾ مخاطباً للرسول، والمرسل، تغليبا للحاضر على الغائب، وتعميمها لبلقيس وقومها، مع تشديد الإنكار ﴿أَتَمِدُونِنِ بِمَالٍ﴾ وهو إنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه، وسعة سلطانه، أي أتصنعوني وتغرونني بالمال؟ ﴿فَمَاءَ اتْنِ ۚ اللَّهُ﴾ مما رأيتم آثاره من النبوة والملك ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ أي من المال الذي أعطاكم إياه، فلا حاجة لي إلى هديتكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الأموال، إلى التوبيخ بفرحهم فرح افتخار وامتنان، أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّنَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٣٧).

﴿ أَرْجِعْ ﴾ أيها الرسول ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ فَلَنَأَيِّنَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أي من سبأ ﴿ أَذِلَّةً ﴾ أي حال كونهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي أسارى مهانون.

﴿ قَالَ يَتَأَيَّبُ الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣٨).

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام لما دنا مجيء بلقيس إليه، يروى أنه لما رجعت رسلها إليها، وأخبروها بما ردَّ عليهم سليمان، قالت: قد علمتُ والله ما هذا بمَلِكٍ، ولا لنا به من طاقة، وبعثتُ إلى سليمان: إني قادمة إليك بعظماء قومي حتى أنظر ما أمرك؟ فأراد عليه السلام أن يريها بعض ما خصَّه الله تعالى به من العجائب، الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة فقال: ﴿ يَتَأَيَّبُ الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾؟ أي قال سليمان لأشرف من حضره من جنده، أيكم يأتيني بسريرها المرصع بالجواهر، قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين؟ وأراد بذلك إطلاعها على بدائع المعجزات، في أول مجيئها.

﴿ قَالَ عِيفْرِيتُ مَنِ الْجِنِّ أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (٣٩).

﴿ قَالَ عِيفْرِيتُ مَنِ الْجِنِّ ﴾ أي قال مارد من مرده الجن ﴿ أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ أي من مجلسك للحكومة، وكان يجلس للحكومة، إلى نصف النهار، أي أنا آتي به في أقل من نصف نهار ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ ﴾ لا يثقل عليَّ حملة ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما فيه من الجواهر والنفائس.

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي قال بعض الصالحين من أتباع سليمان، وهو «أصف بن برخيا» وكان رجلاً صديقاً يقرأ الكتب الإلهية، ويعلم الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب: أنا آتيك بعرشها (١) قبل تحريك جفنتك للنظر إلى شيء، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه، ولما لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة استغنى عن التأكيد، وطوى ذكر الإتيان به، ووجيء بالفاء الفصيحة حيث قيل ﴿ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أي رأى العرش حاضراً لديه، ﴿ قَالَ هَذَا ﴾ أي حضور العرش في المدة القصيرة ﴿ مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ (٢) أي تفضله عليّ من غير استحقاق مني ﴿ لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ ﴾ أي ليختبرني أشكر إنعامه، وأقوم بحقه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أم أجدد فضله وإحسانه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي منفعة الشكر لنفسه، لأنه يستجلب به المزيد كما قال سبحانه: ﴿ لئن

(١) فإن قيل: كيف قدر على الإتيان بالعرش مع أنه غير نبي؟ الجواب يجوز أن يُخصَّصَ غيرُ النبي بكرامة، كما حُصت مريم، بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة، وذكريا لم يُرزق منها، ولم يلزم من ذلك فضلها على زكريا، مع أن كرامة التبوع من جملة كرامة المتبوع.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٦٧٢/٢: ومن ههنا يظهر أن سليمان عليه السلام أراد بإحضار هذا السرير، إظهار عظمة ما وهب الله له من المُلْك، وما سَخَّر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها، قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجته بالأغلاق والأقفال، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، قال أصف كاتب سليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فإذا هو حاضر عنده. اهـ.

شكرتم لأزيدنكم ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أي لم يشكر ﴿ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ ﴾ عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ﴾ بترك تعجيل العقوبة، وبالإنعام عليه مع ترك الشكر، ولمّا قرُب وصول ملكة سبأ إلى بلاده، أمر بأن تُغيّر بعض ملامح عرشها امتحاناً لها.

﴿ قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤١).

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ نَكِرُوا ﴾ أي غيّرُوا هيئته بوجه من الوجوه ﴿ لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ﴿ أَتَهْتَدِي ﴾ إلى معرفته ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾؟ أي أم لا تهتدي إلى معرفة عرشها الذي نقلناه، وأراد بذلك اختبار عقلها وذكائها.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوَيْتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا

مُسْلِمِينَ ﴿ (٤٢) ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ ﴾ بلقيس سليمان، عليه السلام، وقد كان العرش بين يديه ﴿ قِيلَ ﴾ من جهة سليمان بالذات، أو بالواسطة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾؟ لم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير، من مغايرة بعض صفاته مع اتحاد الذات ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ فأنبأت عن كمال فهمها، ورجاحة عقلها، حيث لم تقل: هو، هو ولم تقطع وتجزم بأنه غيره ﴿ وَأُوَيْتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ من تنمة كلامها، كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها، وإظهار معجزة لها، فقالت: أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك، من قبل هذه المعجزة، التي شاهدناها ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ من ذلك الوقت<sup>(١)</sup>، وفيه من الدلالة على كمال رزاة رأيها ما لا يخفى.

(١) هذا القول مرجوح، والأصح والأظهر ما قاله مجاهد، أنه من قول سليمان عليه السلام، أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة، العلم بالله =

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ وَصَدَّهَا ﴾ أي صدّها ومنعها من التقدم إلى الإسلام، عن عبادتها القديمة للشمس ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهي بين ظهرانيهم، إلى أن دخلت تحت ملك سليمان.

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ وهو القصر الفخم، وكلُّ بناءٍ عالٍ مرتفع يسمى صرحاً، أي قيل لبلقيس: ادخلي هذا القصر المنيف المشيد، روي أنه عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى قصراً صحنه من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيها السمك ونحوه، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ﴾ أي ظنته لُجَّةً ماءً، - أي ماءً غمراً كثيراً - وكشفت عن ساقها لتخوض فيه لئلا تبتل أذيالها ﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام حين رأى ما اعترأها من الدهشة ﴿ إِنَّهُ ﴾ ما توهمته ماء ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي مملس مسوى ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أي من الزجاج، والقارورة: إناء من زجاج جمعها قوارير ﴿ قَالَتْ ﴾ حين عاينت تلك الخارقة ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بما كنت عليه من الشرك بعبادة الشمس ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ تابعة له، فدخلت في الإسلام، كما أسلم سليمان

= وبوحدايته وقدرته، وكنا مسلمين لله قبلها، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً، وهي كانت قد صدّها ومنعها من عبادة الله وحده، ما كانت تعبد من دون الله لأنها كانت من قوم كافرين، وهذا ما اختاره شيخ المفسرين ابن جرير، والحافظ ابن كثير، قال: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح. اهـ.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وصفه بالربوبية لإظهار تفرده تعالى لاستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب وهو نبي الله صالح عليه السلام، يدعوهم إلى الله، وقد كانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله رب العالمين، الذي لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ففاجئوا التفرق والاختصاص، حيث آمن فريق، وكفر فريق .

﴿قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للفريق الكافر منهم، بعدما شاهد منهم نهاية العتو والعداوة ﴿يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي لم تستعجلون بالعقوبة السيئة، فتقولون ائتنا بما تعدنا؟ ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي قبل التوبة فتأخرونها إلى حين نزول العذاب؟ وقد كانوا لجهلهم يقولون: إن وقع إيعاده، تُبنا حينئذ، وإلا فنحن على ما كنا عليه ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي هلاً تستغفرون الله تعالى قبل نزول العذاب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول التوبة، إذ لا إمكان للقبول عند نزول عذاب الله .

﴿قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَیَمَن مَّعَكَ قَالَ طَیْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَیَمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاء منا بك وبأتباعك المؤمنين،

وأصله تطيرنا أي تشاء منا، وكانوا قد تابعت عليهم الشدائد، وأصابهم القحط والجوع حتى كادوا يهلكوا، فلذلك تشاءوا من دعوته ﴿ قَالَ طَبَّرَكُمُ أَي السبب الذي ينالكم ما ينالكم من الشر ﴾ عِنْدَ اللَّهِ ﴿ هُوَ عَمَلِكُمُ السَّيِّئِ الْمَكْتُوبِ عِنْدَهُ، فَهُوَ سَبَبُ شُؤْمِكُمْ لَا نَحْنُ ﴾ ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أي يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم، ولذلك تقولون ما تقولون!! .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ديار ثمود وهي الحِجْرُ ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي تسعة أشخاص وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة مغرقين في الإجرام ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ لا في المدينة فقط، شأنهم الإفساد وإيذاء العباد، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الإصلاح، وبعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض، في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام، وكان ذلك عندما أُنذِرهم بالعذاب ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أي تحالفوا بالله على قتله، مقول لقالوا ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي لناغتن صالحاً وأهله ليلاً لنقتلهم، والبيات مهاجمة العدو ليلاً ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي ولي صالح عليه السلام ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنا محل هلاكهم، فضلاً أن نتولى إهلاكهم ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ من تمام القول أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس: أتوا دار صالح عليه السلام شاهرين سيوفهم ليقتلوه، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم.

﴿ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا ﴾ أي دبروا مكيدة لقتل صالح عليه السلام ﴿ وَمَكْرَنَا مَكْرًا ﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم <sup>(١)</sup> ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من حيث لا يحتسبون .

﴿ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ فَأَنْظِرْ ﴾ أي فتفكر ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ، روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر، في شِعْبٍ يصلي فيه، فخرجوا إلى الشَّعْبِ وقالوا: إذا جاء ليصلي قتلناه، فبعث الله صخرة من الهضاب، فطَبَّقَت الصخرة على فم الشَّعْبِ، فلم يدر قومهم أين هم؟ ولم يدروا ما فُعل بقومهم؟ وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ أي خالية وساقطة متهدمة يقال: خَوَت

(١) المكر من الله بمعنى الجزاء، أي جازيناهم على مكْرهم بتعجيل هلاكهم، سَمَّاهُ مَكْرًا بطريق المشاكلة، كقوله سبحانه: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ مع أن ردَّ العدوان، والانتصاف من الظالم، ليس قبيحاً، فهو مجرد اتفاق في اللفظ مع اختلاف في المعنى، قال الحافظ ابن كثير ٦٧٥/٢: أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، واتفقوا على قتله غيلةً ليلاً، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . اهـ .

الدار، أي خلت من أهلها، وخوت النجوم سقطت ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي بسبب ظلمهم المذكور ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكّر من التدمير ﴿لآيَةً﴾ أي لعلبة عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتصفون بالعلم والفهم.

﴿وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنفُوتُونَ﴾.

﴿وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُوا يَنفُوتُونَ﴾ الكفر والمعاصي اتقاء مستمراً فلذا نجوا.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي الفعلة المتناهية في القبح ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حالية لتأكيد الإنكار، فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع، أي تفعلونها والحال إنكم تعلمون بكونها كذلك، وقيل: يبصرها بعضكم من بعض، لما كانوا يعلنون بها.

﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَجَاهِلُونَ﴾.

﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تكرير للتوبيخ، وبيان لما يأتونه بطريق التصريح ﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي متجاوزين النساء ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَجَاهِلُونَ﴾ أي تفعلون فعل الجاهلين بقبحه وعاقبته، أو الجهل بمعنى السفاهة، أي بل أنتم قوم سفهاء، لا تميزون بين الحسن والقبيح.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ ﴾ فَأُنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِّنَ الْغَيَّبِينَ ﴿٥٧﴾ .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ ﴾ فَأُنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا ﴿ أَي قَدَرْنَا إِنهَا ﴾ ﴿ مِنْ الْغَيَّبِينَ ﴾ أَي الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ لِأَنَّهَا كَافِرَةٌ .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴾ أَي أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن السَّمَاءِ مُتَابِعَةً، كَانَتْ تَنْزُلُ عَلَيْهِمْ كَالْمَطَرِ عِنْدَ انصِيبِهِ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالْحِجَارَةِ، فَبُئِسَ هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي أَمْطَرُوا بِهِ، وَهُوَ حِجَارَةٌ مِّن سَجِيلٍ مَنْضُودٍ .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ قُلِ ﴾ بَعْدَ أَنْ قَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَسُولِهِ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَبَيَّنَّ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ حَقِيَّةَ الْإِيمَانِ، وَبَطْلَانَ الْكُفْرِ، وَأَنَّ مَنِ اقْتَدَىٰ بِهِمْ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ تَرَدَّىٰ، أَمَرَ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يَحْمَدَهُ تَعَالَىٰ، عَلَىٰ مَا أَفَاضَ عَلَيْهِ مِّنَ تِلْكَ النِّعَمِ فَقَالَ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ ﴾؟ أَي هَلِ اللهُ الَّذِي ذُكِرَتْ شُؤْنُهُ، الْخَالِقُ الْمُبْدِعُ، الْحَكِيمُ، خَيْرٌ أَمْ الْأَصْنَامُ الَّتِي عَبَدُوهَا؟ ﴿ أَمَا يُشْرِكُونَ ﴾؟ أَي مَا يُشْرِكُونَهُ بِهِ تَعَالَىٰ مِّنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ؟ وَالْغَرَضُ تَبْكِيَةُ الْكُفْرَةِ، وَتَسْفِيَةُ آرَائِهِمْ، إِذْ مِّنَ الْبَيِّنِّ أَنَّهُ لَيْسَ فِيمَا أَشْرَكُوا بِهِ شَائِبَةٌ خَيْرٍ حَتَّىٰ يُوَازِنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَا

خير إلا خيره، ولا إله غيره، وكان ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله تعالى خير وأبقى، وأجل وأكرم».

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أم منقطعة، والمعنى: بل أم من خلق السماوات والأرض، وأبدع الكائنات بجميل صنعه، وباهر قدرته؟ ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ ﴾ أي لأجلكم ومنفعتكم ﴿ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي مطراً ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ أي بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي ذات حسن ورونق، يبتهج به الطَّار ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ ﴾ أي ما صحَّ وما أمكن لكم ﴿ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ فضلاً عن ثمرها، وسائر صفاتها البديعة ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ أي أي إله آخر مع الله حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة؟ وهذا تبكيت آخر لهم، حيث يسوون بين الخالق الرازق، والصنم الأصم، ولهذا قال: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ أي بل قوم عادتهم العدول عن طريق الحق، والانحراف عن الاستقامة.

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾؟ بحيث يستقر عليها الإنسان، والدواب، بإبداء بعضها من الماء، وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم، وجعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ جارية ينتفعون بها ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبلاً ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها معادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلق بها من المصالح ما لا يُحصى

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة، فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد ماء البحار ماء الأنهار ﴿أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟﴾ في الوجود، وفي إبداع هذه البدائع؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره، ولا يفهمون أن ما هم عليه من الشرك باطل.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أوجته شدة من الشدائد، ونوازل الدهر، إلى الضراعة إلى الله تعالى، واللام للجنس، لا الاستغراق، حتى يلزم إجابة كل مضطر ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان مما يسوء، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما بالإنسان من فقر إلى غنى، ومرض إلى صحة، وضيق إلى سعة، إلا القادر على كل شيء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ بأن ورثكم سكنها والتصرف فيها ممن قبلكم ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟﴾ الذي يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسم ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ أي تذكر أقل، أو زماناً قليلاً تتذكرون.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي في ظلمات الليالي وفيهما، في الأسفار والقفار، ومشتبهات الطرق، يقال: طريقة ظلماء وعمياء، لتي لا منار بها ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهي المطر ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟﴾ الذي دبّر أمور هذه العوالم بحكمته، وأبدع خلقها بقدرته؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزهه وتقدس المنفرد بالألوهية عما يشركون معه من حجارة صماء، لا تسمع ولا تستجيب، وسواء من دحاها أو رجاها.

﴿ أَمَّنْ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾  
 قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾؟ بعد الموت بالبعث؟ والكفرة وإن أنكروا الإعادة، فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾؟ أي بأسباب سماوية وأرضية ﴿ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾؟ حتى يجعل له شريكاً في العبادة؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾؟ في تلك الدعوى .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بعدما حَقَّقَ تفردَه بالألوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة، والرحمة الشاملة، عقبه بذكر اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي متى يُنشرون من القبور، والضمير للكفرة .

﴿ بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴾

﴿ بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أصله تدارك ومعناه: تلاحق وتدارك، بمعنى جهلوا علمها، ولا علم عندهم من أمرها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بذلك أصلاً، ثمَّ أُضْرِبَ عن بيان عدم علمهم، إلى بيان ما هو أسوأ منه، وهو حيرتُهم في ذلك حيث قيل ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِّنْهَا ﴾ من نفس الآخرة كمن تحيّر في أمر لا يجد عليه دليلاً، ثمَّ أُضْرِبَ عن ذلك إلى بيان ما هم فيه أشد وأفظع من الشك، حيث قيل:

﴿عَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> بحيث لا يكادون يدركون دلائلها، لاختلاف بصائرهم بالكلية، وفيه نُكْتة، وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم، فلذلك عدّاه «بمن» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ كُنَّا تَرَابًا وَاَبَاؤُنَا اَيْنَا الْمُخْرَجُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بيان لجهلهم بالآخرة، وعماهم عنها، والمراد بهم كفار مكة، ووضع الموصول موضع ضميرهم، لذمهم، والإشعار بعلّة حكمهم الباطل في قولهم ﴿ إِذْ كُنَّا تَرَابًا وَاَبَاؤُنَا اَيْنَا الْمُخْرَجُونَ ﴾؟ أي أنخرج من القبور إذا كنا تراباً؟.

﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَاَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ اِنْ هَذَا اِلَّا اَسْطِيرُ الْاُولَيْنِ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَاَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي لقد وعدنا محمد بالبعث، كما وعد آباؤنا من قبله في الأزمنة المتقدمة، ثم لم يُبعثوا ولن يُبعثوا، ولو كان البعث حقاً لحصل ﴿ اِنْ هَذَا اِلَّا اَسْطِيرُ الْاُولَيْنِ ﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأساطير الأولين، سَطَّروها وكتبوها كذباً.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْاَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْاَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي تفكروا واعتبروا كيف صار مآل المكذبين المجرمين؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم؟.

(١) خلاصة معنى الآية: أن المشركين لا يصدّقون بالآخرة، وهم شاكّون في وقوعها ووجودها، بل هم في عمية وجهل كبير بأمرها، فلماذا يسألون عن الساعة، وهم لا يؤمنون ولا يصدّقون بالآخرة؟.

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ﴾ أي في حرج صدر ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم، فإن الله يعصمك من الناس .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أي العذاب العاجل الموعود ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في إخباركم بإتيانه، والجمع باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك .

﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾ .

﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أي تبعكم ولحقكم، واللام مزيدة للتأكيد، و«عسى» و«لعل» و«سوف» في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم، كالتصريح ممن عداهم، وعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي ما تتعجلونه من العذاب .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي لذو إفضال وإنعام على الناس، ومن جملة إنعامه تأخير عقوبة هؤلاء، على ما يرتكبونه من المعاصي ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لا يعرفون حق النعمة فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وقوعه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي ما تخفيه قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الأفعال والأقوال، التي من جملتها استعجال العذاب، فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، ولكن له وقتٌ مقدَّر، وفيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما يظهرونه، وأنه تعالى يجازيهم على الكل.

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ ﴾ أي من خافية ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ سَمِّي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة، وخافية، والتاء للمبالغة، كالعاقبة والعافية ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من الدين، ومن جملته ما اختلفوا في شأن المسيح، وتحزبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن العتو والغلو، في الإفراط والتفريط، ووقع بينهم التناكر في أشياء، كأحوال الجنة، والنار، وعزير، والمسيح، حتى بلغ المشاقة، إلى حيث لعن بعضهم بعضاً، وقد نزل القرآن الكريم ببيان الحقائق القاطعة.

﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وإن القرآن لهداية لقلوب أهل الإيمان، ورحمة لهم.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٧٨﴾ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين بني إسرائيل ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ أي بحكمته وبعده ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فلا يرد حكمه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بجميع الأشياء .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ ﴿٧٩﴾ .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ الذي هذا شأنه ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق، الواضح المنير، والعاقبة لك بالنصر على أعدائك .

﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ .

﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالموتى، لا حسَّ لهم ولا فهم ولا عقل، وإنما شُبِّهوا بالموتى، لعدم تأثرهم بما يُتلى عليهم ﴿ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ ﴾ أي الدعوة إلى أمر من الأمور، وتقيد النفي بقوله تعالى: ﴿ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ ﴾ لتكميل التشبيه، وتأکید النفي، فإنهم مع صَمَمِهِمْ معرضون عن الداعي، مولون أدبارهم، فسماعهم في هذه الحالة أبعد .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أي وليس بوسعك أن تصرف عُمى القلوب عن كفرهم وضلالهم، والآية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فإن الاهتداء منوط بصفاء القلب ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾ أي ما تُسْمِعُ سماعاً يُجدي السامع نفعاً ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي إلا من يصدِّق وينقاد لأمر الله، ويؤمن بآياته ﴿ فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ مخلصون لله جلَّ وعلا من قوله سبحانه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أي أخلص في إيمانه وعمله .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ المراد بالقول: مجيء الساعة، وما فيها من الأهوال، التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه: قيامها وحصولها وقد يراد بالوقوع دنؤها، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي إذا دنا وقرب وقت قيام الساعة، وظهرت أمارات القيامة، التي كانوا يكذبون بها ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ وهي الجساسة، وفي التعبير عنها باسم الجنس، وتأكيد إبهامه بالتونين التفضيحي ﴿ دَابَّةً ﴾ من الدلالة على غرابة شأنها، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة»<sup>(١)</sup> وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجَ، طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجَ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضَحَى، وَأَيْتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيباً»<sup>(٢)</sup> ﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي تكلمهم بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله، الناطقة بمجيء الساعة، قيل: تكلمهم بالعربية الفصحى، بلسان عربي فصيح فتقول: ألا لعنة الله على الظالمين، الذين لا يؤمنون بآيات الله، وتكلمهم ببطلان الأديان، سوى دين الإسلام، ووصفهم بعدم الإيقان، مع أنهم كانوا جاحدين بها، للإيدان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها، ويعتقدوا بصحتها.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ .

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في كتاب الفتن .

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤١ في الفتن أيضاً وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣١٠ .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ المراد بهذا الحشر، هو الحشر للعذاب، بعد الحشر لكافة الخلق، أي واذكر لهم وقت جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام، جماعة كثيرة ﴿ مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي فوج المكذبين بها ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا في موقع التوبيخ والمناقشة.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا ﴾ أي إلى موقف السؤال ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى موبخاً لهم ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي ﴾؟ الناطقة بقاء يومكم هذا؟ ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾؟ جملة حالية مؤكدة للإنكار، أي أكذبتهم بها بادي الرأي، غير ناظرين فيها نظراً، يُؤدّي إلى العلم بكنهها؟ وهذا نص في أن المراد بالآيات فيما سلف، هي الآيات القرآنية، لأنها منظوية على دلائل الصحة، وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علماً ﴿ أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أم أي شيء كنتم تعملون في الدنيا؟ كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والتكذيب، مع أنهم ما خلقوا إلا للإيمان والطاعة، يُخاطبون بذلك تبكيتاً، ثم يُكَبُّون في النار.

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ .

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي حلَّ بهم العذاب، الذي كانوا ينكرونه ﴿ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أي بسبب ظلمهم، وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿ فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ باعتذار، لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغلٍ من العذاب الأليم.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلًا لِّلْسِكْنُوٓا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۗ إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ ﴾ الرؤيةُ قلبية لا بصرية، أي ألم يعلموا أننا جعلنا الليل، بما فيه من الإظلام ﴿ لَيْسَكُنُوا فِيهِ ﴾ أي ليستريحوا فيه بالنوم والقرار ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي ليبصروا بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب في أمور المعاش، ﴿ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ ﴾ في جعلهما كما وُصفا ﴿ لآيَاتٍ ﴾ كثيرة عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ دالة على صحة البعث، وصدق الآيات الناطقة به، دلالة واضحة، كيف لا، فإنَّ من تأمَّل في تعاقب الليل والنهار، وشاهد تبدل الظلمة المحاكية للموت، بضياء النهار المضاهي للحياة، قضى بأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، وخصَّ المؤمنين بالذكر ﴿ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون بتلك الدلائل الكونية.

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ نفخة الفزع<sup>(١)</sup> ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ المراد به ما يعتري الكلَّ عند البعث، بمشاهدة الأمور الهائلة، من الرعب والهول، أي لا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا خاف وفزع، وإيراد الماضي (ففزع) للدلالة على تحقق وقوعه إثر النفخ ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن لا يفزع من الملائكة، والأنبياء، والشهداء ﴿ وَكُلُّ ﴾ أي كل واحد من المبعوثين عند النفخ ﴿ أَتَوَةٍ ﴾ أي حضروا الموقف للسؤال ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين، ذليلين.

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٦٨٤: وهذه «نفخة الفزع» ثم بعد ذلك «نفخة الصعق» وهو الموت، ثم بعد ذلك «نفخة القيام لرب العالمين» وهو النشور من القبور لجميع الخلائق. أهـ وعلى هذا القول يكون النفخ في الصور ثلاثاً، والله أعلم.

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ ﴾ وقت النفخة ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي ثابتة في مكانها، من جَمَدَ في مكانه إذا لم يبرحه ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أي في السرعة، تراها رأي العين ساكنة والحال أنها تمرُّ مرَّ السحاب، تسيِّرها الرياح سيراً حثيثاً، وذلك أن الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركاتها، وهذا ممَّا يقع بعد النفخة الثانية، عند حشر الخلق، ليشاهدها أهل المحشر<sup>(١)</sup>، وهي وإن اندكت وتصدَّعت عند النفخة الأولى، لكن تسييرها بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ صُنِعَ اللَّهُ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أي صَنَعَ الله ذلك صُنْعًا ﴿ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أحكم خلقه، وسوّاه على ما تقتضيه الحكمة، المستتعبة للغاية الجميلة ﴿ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ تعليل لكون ما ذكر صنْعاً محكماً له تعالى، ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها،

(١) في هذا القول نظر، والصحيح أن هذا إنما يكون في الدنيا لا في المحشر، فالآية الكريمة تشير إلى إبداع الله في صنعه وتدييره، الكواكب، والأرض، والشمس، والقمر، كلها تسبح في هذا الفضاء الواسع، دون أن تنقلب الأرض بمن فيها، أو تصطدم النجوم بعضها ببعض، بدليل قول الله تعالى ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وقوله ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ففي الآية الكريمة إشارة رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهي سبق علمي فريد، لم يعرفه البشر إلا في عصر اختراع المراكب الفضائية، التي دارت حول الأرض، ووصلت إلى القمر، وصوّرت لنا الأرض وهي تشرق وتغرب عليهم، كما تشرق الشمس وتغرب على سكان الكوكب الأرضي، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية سبق إليها القرآن» فيه روائع وبدائع تثبت إعجاز القرآن من الناحية العلمية، وسبقه للمكتشفات والمخترعات العصرية.

(٢) سورة طه، آية: ١٠٥ - ١٠٧.

وبيان كيفيتها على ما هي عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزيتها عليها، بعد بعثهم وحشرهم، أي هو تعالى عليم بما يفعل العباد، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَأَمِنُونَ ﴾ (٨٩)

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي من جاء منكم، يوم القيامة بالحسنة، فله من الجزاء ما هو خير منها، إما باعتبار إضعافها، وإما باعتبار دوامها ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الذين جاؤوا بالحسنات ﴿ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَأَمِنُونَ ﴾ وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب، بعد تمام المحاسبة، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿ لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ وهم آمنون لا يعتربهم ذلك الفزع، ولا يلحقهم ضرره أصلاً، وأما الفزع الذي يعترى كل من في السماوات والأرض، فإنما هو التهيّب والرعبُ في ابتداء النفخة، من معاينة فنون الدواهي والأهوال، فلا يكاد يخلو منه أحد.

﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٠)

﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ قيل: هو الشرك ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أي ألقى فيها على وجوههم في النار منكوسين ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ أي هل تعاقبون وتنالون جزاءكم؟ على إضمار القول، أي تقول لهم خزنة جهنم ذلك ﴿ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾؟ في الدنيا من سيء الأعمال.

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ءُورِثُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩١)

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا ﴾ أمر ﷺ أن يقول بعد

ما بيّن لهم، أحوال المبدأ والمعاد، تنبيهاً لهم على أنه قد أتمّ أمر الدعوة، بما لا مزيد عليه، ولم يبقَ له ﷺ بعد ذلك شأن، سوى الاشتغال بعبادة ربه، غير مبالٍ بهم، ضلوا أم رُشدوا، والبلدة هي «مكة» المعظمة، وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها، وشناعة ما فعلوا فيها، ألا ترى أنها مع كونها محرّمة، من أن تنتهك حرمتها، باختلاء خلاها، وعضد شجرها، وتنفير صيدها، أنهم قد استمروا فيها على تعاطي أفجر أنواع الفجور، حيث تركوا عبادة ربها، ونصبوا فيها الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَيْءٌ﴾ خلقاً، ومِلكاً، وتصرفاً، من غير أن يشاركه أحد في شيء منها ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي أن أثبت على ما كنت عليه ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الذين أسلموا وجوههم لله خالصة، من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ؟﴾ (١).

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٩٢).

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ أي أو اظب على تلاوته وأن أقرأه على الناس، بطريق تكرير الدعوة، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته في الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ حينئذ بالإيمان به والعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي فإنما منافع اهتدائه، عائدة إليه لا إلى غيره ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بالكفر به، والإعراض عن العمل بما فيه ﴿فَقُلْ﴾ في حقه ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار، فليس عليّ من وباله شيء، وإنما وباله على نفس المنكر المكذب، إذ ما على الرسول إلاّ البلاغ المبين.

(١) سورة النساء، آية: ١٢٥.

﴿ وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سَيْرِكُمْ آيَاتِهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ ﴾ على ما أفاض عليّ من نعماء، التي أجلها نعمة النبوة ﴿ سَيْرِكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي سيريكم في الدنيا آياته الباهرة، التي نطق بها القرآن، كخروج الدابة، وسائر أشراف الساعة ﴿ فَنَعْرِفُونَهَا ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله تعالى، حين لا تنفعكم المعرفة، وقوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كلام من جهته تعالى مقرّر لما قبله، ومتضمن للوعد والوعيد. والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل»

\*\*\*

# سُورَةُ الْقَصَصِ

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الواضح إعجازه .

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ ﴾ أي نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، لأنه كان يتلوه على الرسول ﷺ حتى يحفظه، ويجوز أن تكون التلاوة مجازاً عن التنزيل من نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ﴿ أي بعض نبئها ﴾ بِالْحَقِّ ﴿ بالصدق ﴾ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ تخصيصهم بذلك، لأنهم هم المنتفعون به .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي تجبر وطفى في أرض مصر، وجاوز الحدود في الظلم ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي فرقاً وأصنافاً في استخدامه

وأغرى بينهم العداوة ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿يُذِيحُ أُنْبَاءَهُمْ﴾ وذلك أن كاهناً قال له: يولد في بني إسرائيل مولودٌ، يذهب ملكك على يده، وما ذلك إلا لغاية حمقه، إذ لو صدق فما فائدة القتل؟ وإن كذب فما وجهه؟ ﴿وَيَسْتَخِيءُ نِسَاءَهُمْ﴾ أي يترك البنات أحياء للخدمة ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الراسخين في الفساد.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نتفضل بإنجائهم من بأسه ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقْتَدَى بِهِمْ في أمور الدين، بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين للآخرين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي وارثين لملك فرعون وقومه، يرثون ملكهم، ويسكنون مساكنهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ أي نسلطهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاؤون ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ من أولئك المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه، من ذهاب ملكهم، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما أمكن إخفاءه، وفيه دلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك <sup>(١)</sup> ﴿ فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ ﴾ بأن يحس به الجيران عند بكائه ﴿ فَكَلَّمِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أي في البحر، وهو نهر النيل ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ عليه من الغرق ﴿ وَلَا تَحْزَنِي إِنْ رَأَوْهُ إِلَيْكَ ﴾ عن قريب ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> تعليل للنهي، أي ونجعله رسولا نرسله إلى هذا الطاغية الجبار.

﴿ فَالْقَطْعُ: ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ .

﴿ فَالْقَطْعُ: ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي فألقته في اليمّ فالتقطه، أي أخذوه أخذ اعتناء به، وصيانة له، فنظرت آسية فإذا هي بصبي صغير في مهده، فألقى الله محبته في قلبها، وهمّ فرعون بقتله، فاستوهبته آسية فتركه لها ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ اللام لامُ العاقبة، أي ليصير الأمر إلى ذلك، أن يصير عدواً لهم لا لأنهم أخذوه لهذا، كقول القائل: «لِدُوا لِلْمَوْتِ، وابتُوا للخراب» ﴿ وَحَزَنًا ﴾ أي سبباً لحزن فرعون وهلاكه ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون، فلا غرو أن قتلوا لأجله ألوفاً، ثم أخذوه يربؤونه، ويفعل الله بهم ما كانوا يحذرون.

(١) فإن قيل: ما فائدة الأمر بإرضاعه، والأم بطبيعة الفطرة ترضع ولدها؟ فالجواب أن الله أمر بإرضاعه حتى يألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها.

(٢) هذه الآية: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ من معجزات الإعجاز والإيجاز، لاشتمالها على أمرين، ونهيتين، وخبرتين، وبشارتين، في أسهل نظم، وأسلس لفظ، وأوجز عبارة، أما الأمران فهما: أرضعيه، وألقيه، والنهيان: لا تخافي، ولا تحزني، والخبران: أوحينا، وخفت، والبشارتان: إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، فما أبدع هذا الإعجاز.

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي قالت لفرعون حين أخرجه من التابوت، وخاطبته بلفظ الجمع ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ تعظيماً، ليساعدها فيما تريده ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم، فيما صنعوا من الالتقاط، وأن هلاك فرعون وأتباعه سيكون على يدي هذا الغلام.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّىٰ قَلْبَهَا لَتَأْكُوفَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ أي خالياً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون<sup>(١)</sup>، كقوله تعالى: ﴿ وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ ﴾ وهو قول صاحب الكشاف، وقيل: فارغاً من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى، وهو قول أبي عبيدة، أو لسماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه وهو قول أبي مسلم ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي إنها كادت لتظهر أمر موسى، وأنه ابنها، من فرط الحيرة والدهشة ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّىٰ قَلْبَهَا ﴾ بإلهام الصبر ﴿ لَتَأْكُوفَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي من المصدقين بوعد الله، الواصلين بحفظه تعالى لهذا الوليد.

(١) وقيل إن المعنى: أن قلبها صار خالياً من كل شيء في الدنيا، إلا من ذكر ولدها موسى، لم يعد في قلبها إلا همُّ أمره ونجاته، وهذا القول مروى عن ابن عباس، والأظهر - والله أعلم - أن معنى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ أن عقلها طار من فرط الجزع والغم، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي كادت تصيح وا ابناه، وهذا القول ذكره القرطبي عن مالك رحمه الله، ولعله هو الأصح والأظهر.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهُ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١١)

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ ﴾ التعبيرُ عنها بأخوتَه دون أن يقال: لبنتها، للتصريح بمدار المحبة الموجبة لامثال الأمر ﴿ قُصِّيهُ ﴾ أي ابتغي أثره وتتبعي خبره، قصصت الأثر تتبعته ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي أبصرته عن بُعد، وهم لا يشعرون أنها تقصه وتتعرف حاله، وأنها أخته.

﴿ وَحَرَّمَنا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ ﴾ (١٢)

﴿ وَحَرَّمَنا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ تحريم منع لا تحريم شرع، وذلك يحتمل أنه تعالى أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء، أو وضع لبن أمه لذة فلما تعودها كان يكره لبن غيرها ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل قصها أثره وقد دخلت بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ ﴾؟ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، روي أن هامان لما سمعه منها قال: إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله، فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله، فأنت بأمه، وموسى على يد آسية يبكي، وهي تعلله، فدفعته إليها، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، وطيبة اللبن، لا أوتى بصبي إلا قبلني، فأقره في يدها، وأجرى عليها العطاء بسخاء، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وذلك قوله تعالى.

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣)

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَفَرَّقَ عَنْهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ لفرائه ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لا خُلف فيه لمشاهدة بعضه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، فيرتابون فيه .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ۖ ءَانَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي المبلغ الذي تكتمل فيه الرجولة، ويكمل فيه عقل الإنسان، وهو سنُّ الأربعين، ويروى أنه لم يُبعث نبيٌّ إلا على رأس الأربعين، والحكمة فيه ظاهرة لأنه إذا انتهى إلى أربعين تكامل عقله وأخذ في الازدياد ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ أي اعتدل قدره وعقله، فالأشدُّ: عبارة عن كمال القوة البدنية، والاستواء: كمال القوة العقلية ﴿ءَانَيْتَهُ حُكْمًا﴾ أي نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي علم العلماء والحكماء، لأن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أنه إنما أعطاه العلم، مجازاة على إحسانه، والنبوة لا تكون جزاءً على العمل .

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ ۗ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۗ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۗ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أي مصر من قصر فرعون ﴿عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ﴾ في وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه، قيل: كان وقت القيلولة ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ من أهل المدينة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي ممن شايعه على دينه، أي من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي مخالفه ديناً من القبط ﴿فَاسْتَغْنَىٰ ۗ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ﴾ أي سأله أن يغيثه بالإعانة، وشيعةُ الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ﴾ أي ضرب القبطي بجمع كفه

وقيل: الوكز ضرب في الصدر، وكزه من باب وعد، أي ضربه ودفعه، وقال الكسائي: وكزه أي لكمه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله، أصله أنهى حياته ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار، أو لأنه كان مأموناً فيما بينهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عدّه من عمل الشيطان، وسماه ظلماً، واستغفر منه، جرياً على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم، وإن كان من محقرات الصغائر ﴿إِنَّهُمْ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتله ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ ذنبي ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ المبالغ في مغفرة ذنوب عباده، ورحمتهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ إنعامك عليّ اعصمني، فلن أكون معيناً لمن تؤدي معونته إلى الجرم، وفيه دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ (١٨)  
﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُّبِينٌ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه أي يستغيثه برفع الصوت من الصراخ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُّبِينٌ﴾ أي بين الغواية، تسببت لقتل رجل، وتقاتل آخر اليوم!

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ  
تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ  
تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ ﴾ موسى ﴿ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ أي لموسى  
وللإسرائيلي ﴿ قَالَ يَا مُوسَى ﴾ الإسرائيلي ظاناً أنه عليه السلام سيبتش به،  
حسبما يوهمه تسميته إياه غويّاً ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ قالوا:  
لمّا سمع القبطي قول الإسرائيلي، علم أن موسى هو الذي قتل ذلك  
الفرعوني، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون بقتل موسى،  
وقيل: قاله القبطي<sup>(١)</sup> ﴿ إِنْ تُرِيدُ ﴾ أي ما تريد ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾  
وهو الذي يبتش، ويقتل، ولا ينظر في العواقب ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ  
الْمُصْلِحِينَ ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ  
لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ آخرها ﴿ يَسْعَى ﴾ أي يسرع، وهو مؤمنٌ من  
أل فرعون ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي يتشاورون بسبيك  
﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي يريدون قتلك، فأنصحك أن تخرج  
من هذا البلد بسرعة، فأنا لك ناصح أمين.

(١) القول الأول أظهر، وهو الذي حكاه ابن كثير في تفسيره ٣/٣٩٤ حيث قال: ولمّا عزم  
على البتس بذلك القبطي، اعتقد الإسرائيلي لحوّره وضعفه، أن موسى إنما يريد قتله  
لمّا سمعه يقول ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال له: ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا  
بِالْأَمْسِ ﴾ فلقفها القبطي من فمه، ثم ذهب إلى فرعون فأخبره بذلك اهـ.

﴿ فَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢١)

﴿ فَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا ﴾ أي من المدينة ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق الطالبين ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي خلصني منهم، واحفظني من شرهم.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٢٢)

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ نحو مدين وهي مدينة شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ توكلًا على الله، وثقة بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرق وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢٣)

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ ﴾ أي وصل ﴿ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي فوق شفيرها ﴿ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ ﴾ جماعة كثيفة ﴿ يَسْقُونَ ﴾ أي مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أي أسفل من مكانهم ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تمنعان ما معهما من الأغنام من الماء، لئلا تختلط بأغنامهم، والدُّودُ: الطردُ والدفع ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لهما حين رآهما وما هما عليه من التأخر والدود ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر؟ ولم لا تبشران السقي كدأب هؤلاء؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي

حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ ﴿٢٤﴾ حتى يُصدر الرعاة مواشيهم عن الماء، حذراً من مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونُاسِخٍ كَبِيرٍ﴾ فلا نسقي حتى ينصرف الرعاة بمواشيهم.

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ رحمة عليهما لكونهما على الضعف والعفة، وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنتيه بسقي الماشية، لأنَّ هذا الأمر في نفسه ليس بممنوع شرعاً، وأحوال أهل البدو، غير أحوال أهل الحضرة، خصوصاً إذا كانت حالة ضرورة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ وفيه دلالة على أنه سقى لهما في شمسٍ، وحر ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي أي شيء أنزلته إليَّ من خير فأنا محتاج إليه، وحمله الأكثرون على الطعام بمعونة المقام.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا ﴾ قيل هي كبراهما، أي جاءته عقيب ما رجعتا إلى أبيهما، روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامهما بطاناً، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحماً فسقى لنا، فقال لإحدهما اذهبي فادعيه لي ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أي كانت على استحياء، تمشي مشية الحرائر، بخجل وحياء، وتنكير استحياء للتفخيم ﴿ قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أسندت الدعوة إلى أبيها، وعللتها بالجزاء، لئلا يوهم كلامها ريبة، وفيه دلالة على كمال عقلها وعفتها، روي أنه عليه السلام أجابها، فانطلقا حتى أتيا دار شعيب عليه السلام



إنشاء عقد ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ ﴾ بإلزام تمام العشر واستيفاء العمل ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ في حسن المعاملة، ولين الجانب، وإيفاء العهد.

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي ذلك الذي قلته ثابت بيننا لا يخرج عنه واحد منا ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ ﴾ أي أكثرهما أو أقصرهما ﴿ قَضَيْتُ ﴾ وفيتك بأداء الخدمة فيه ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أي لا عدوان عليّ بطلب الزيادة على ما أديت، ولا إثم عليّ فيه ﴿ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ والله على ما نقول من الشروط الجارية بينهما شاهدٌ وحفيظ، عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة أيّ الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ قلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسا له فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته فقال: «قضى أكثرهما - يعني العشر - وأطيبهما؟ إن رسول الله إذا قال فعل»<sup>(١)</sup> فالفقهاء استدلوا به على أن العمل قد يكون مهراً كالمال، وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز من الآية الكريمة.

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ۚ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٥ / ٢١٣ .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ أي فعقد العقد، وباشر موسى ما التزمه، فلما أتمَّ الأجل ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ نحو مصر قيل مكث موسى عشر سنين، ثم استأذن العود إلى مصر من شعيب عليه السلام ﴿ وَأَنسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ من يدلني على الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أي عود غليظ وشعلة من النار والجدوة: الجمرَةُ الملتهبة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفنون بها.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْسُكَ إِيَّتِي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ النار التي أبصرها، رأى النور في هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلايب الأنس ﴿ نُودِيَ ﴾ أي أتاه النداء فخطب بألفظ خطاب ﴿ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ أي جانبه الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ إنما وصف البقعة بكونها مباركة، لأنه حصل فيه ابتداء الرسالة والتكلم ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ بدل اشتمال من الشاطيء لأنها كانت ثابتة على الشاطيء ﴿ أَن يَمْسُكَ إِيَّتِي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الجليل، وهذا وإن خالف لفظاً لما في طه، والنمل، لكنه موافق له في المعنى المراد، وفي النمل: ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ وقال في طه: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ . فلا منافاة، لأنه تعالى ذكر الكل، إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء.

﴿ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْهِرُ كَأَنهَآ جَانٌّ وَلَىٰ مُدَبِّرًا لَّمْ يَعْقِبَ يَمْسُكَ أَقِيلٌ وَلَا تَخَفْ إِنَّا كُنَّا مِنَ الْأَمِينِ ﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي ألقها من يديك، فألقاها فإذا هي حية تسعى

﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ في سرعة الحركة، مع عظم جثتها ﴿ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ ﴾ منهزماً من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يلتفت، فبقيل له ﴿ يَلْمُوسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لدي المرسلون .

﴿ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَيْكَ بُرْهَانِنِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ أي أدخل يدك في جيبك، وفي طه: ﴿ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ وفي النمل: ﴿ وَأَدْخَلُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ ﴿ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾ أي عيب كالبرص ونحوه ﴿ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ أي يديك المبسوطين استعارة من حال الطائر، فإنه إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن ضمهما إليه، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، لأن الغرض في أحدهما خروج اليد البيضاء، وفي الثاني زوال الخوف ﴿ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ أي من الخوف، فالخائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه ﴿ فَذَلَيْكَ ﴾ إشارة إلى العصا، واليد ﴿ بُرْهَانِنِ ﴾ أي حجتان نيرتان ﴿ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله تعالى .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلتها، يعني ذلك القبطي، الذي قتله في مصر، لما رآه يعتدي على الإسرائيليين .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ﴿٣٤﴾ .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ لأنه كان في لسانه حُبسة، إمّا في أصل الخَلقة، وإمّا لأجل أنه وضع الجمره في فيه، عندما كان صغيراً في حجر فرعون ﴿ فَأَرْسَلْنَا مَعِيَ رِدْءًا ﴾ معيناً وهو اسم لما يُعان به، كالذَّفء اسمٌ لما يُدْفأ به، والرَّدءُ وزان حِمْل: المعين ﴿ يَصْدِقُنِي ﴾ بتلخيص الحق، وتقرير الحجّة وتوضيحها، المفيد، لا مجرد قوله صدقتك ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي أحد معين أن يكذبوني، لأنهم يكادون لا يفقهون قولي.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ ﴾ أي سنقوي ﴿ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ وكان هارون بمصر، وقوة الشخص على مزاوله الأمور بشدة اليد، وشدهتها بشدة العضد ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أي تسلطاً وعلبة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ باستيلاء أو محاجة ﴿ بِأَيِّتِنَا ﴾ متعلق بمحذوف قد صرح في مواضع أخرى أي اذهباً بآياتنا ﴿ أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ أي الغلبة والنصر لكما ولأتباعكما على فرعون وقومه، وقلب العصا كما أنها معجزة، فهي أيضاً تمنع وصول ضرر فرعون إلى موسى، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما، والمراد بالغلبة هنا: الحجة.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أي واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام، والمراد بها العصا، واليد ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى ﴾ أي سحر مخلوق، موصوف بالافتراء ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ أي ادعاء النبوة واقعاً في أيامهم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٰ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُمْ  
عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٰ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ ﴾ يريد به نفسه عليه السلام  
﴿ مِن عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾؟ أي العاقبة المحمودة، وهي الجنة قال  
الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقِبَى الدَّارِ ﴾ ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي لا  
يفوزون بالهدى في الدنيا، وحسن العاقبة في العقبى .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَآءُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي  
يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَٰهَ مُوسَىٰ وَإِنِّي  
لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَآءُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهِ غَيْرِي ﴾ قاله اللعين  
بعد ما جَمَعَ السحرة، وتصدَّى للمعارضة، فكان من أمرهم ما كان، وكانت  
عادة اللعين متى ظهرت حجة موسى عليه السلام، أن يتعلق في دفع تلك  
الحجة، بشبهة يروِّجها على أغمار قومه، كقوله: ﴿ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ﴾؟ .  
على أنه كان عارفاً بالله تعالى: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ ﴾ أي اصنع آجرًا،  
وأول من اتخذ الآجر فرعون ﴿ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا ﴾ أي قصرًا رفيعاً ﴿ لَّعَلِّي  
أَطَّلِعُ إِلَٰهَ مُوسَىٰ ﴾ كأنه توهم أنه لو كان موجوداً لكان جسماً في السماء،  
يمكن الرقي إليه، والطلوعُ، والاطلاعُ: الصعود ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾  
في دعواه أن له إلهاً، وأنه أرسله إلينا رسولا، وقد تناقض المخذول، فإنه  
قال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهِ غَيْرِي ﴾ ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت  
لموسى إلهاً، قال أهل السير: جَمَعَ هامان العمال، وطبخ الآجر والجص،  
وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه، حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق،  
وأراد الله أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه سقط على العمال فهلكوا جميعاً .

﴿ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا

يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ .

﴿ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ في أرض مصر ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

بغير استحقاق ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث والجزاء .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودُهُ ﴾ الذين بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات

﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ وفيه تفخيم شأن الأخذ، كأنه تعالى أخذهم مع

كثرتهم، وطرحهم في اليم أي البحر، والفرض منه تصوير أن كل مقدور

وإن عظم، فهو حقير بالقياس إلى قدرته تعالى: ﴿ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾؟ تنبيهاً للناس ليعتبروا بها.

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا

يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ أي صيرناهم في عهدهم ﴿ آيَةً يُدْعَوْنَ ﴾ الناس

﴿ إِلَى التَّكْوِينِ ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها، من الكفر والمعاصي، أي قُدوةً

يقتدي بهم أهل الضلال ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ .

﴿ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ

الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ .

﴿ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي طرداً وإبعاداً من الرحمة، ولعناً

من اللاعنين، حيث تلعنهم الملائكة والمؤمنون، خَلْفاً عن سلف ﴿ وَيَوْمَ

الْفَيْمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤١﴾ أي من المطرودين المبعدين عن رحمة الله عز وجل .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ هم أقوام نوح، وهود، وصالح، ولوط عليهم السلام، والتعرض لبيان إيتائها بعد إهلاكهم، للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه، فإن إهلاك القرون الأولى، من موجبات اندراس معالم الشرائع وأحكامها المؤدي إلى اختلال نظام العالم، وحاجته إلى نظام جديد، كأنه قيل: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة إلى إيتائها ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي أنواراً لقلوبهم، تُبصر بها الحقائق، وتُمَيِّز بها بين الحق والباطل ﴿ وَهُدًى ﴾ أي هداية إلى الشرائع والأحكام ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى: ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي ليكونوا على حالٍ يُرجى منه التذكر .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ شروع في بيان أن إنزال القرآن الكريم، واقع في زمان شدة مساس الحاجة إليه، وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله، ببيان أن الوقوف على ما فُضِّل من الأحوال، لا يتسنى إلا بالمشاهدة، أو التعلم ممن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما، تبين أنه وحي من علام الغيوب لا محالة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ أي وما كنت يارسول الله بجانب الجبل الغربي، الذي وقع فيه الميقات ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا أمرنا له بالنبوة وبالوحي ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ من جملة الشاهدين للوحي،

وهم السبعون المختارون للميقات، حتى تشاهد من أمر موسى ما تشاهد، فتخبر به الناس.

﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أي ولكن خلقنا بين زمانك، وزمان موسى، قرونًا كثيرة ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ وتمادى الأمد، فتغيرت الشرائع والأحكام، والأخبار، واندرست العلوم، فافتضى الحال لتشريع جديد، فأوحينا إليك، فحذف المستدرك، اكتفاءً بذكر ما يوجبه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا ﴾ أي مقيماً ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أي تقرأ عليهم بطريق التعلم منهم ﴿ آيَاتِنَا ﴾ الناطقة بالقصة ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إياك وموحين إليك تلك الآيات، ولولا ذلك لما علمتها أنت ولا قومك.

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي وقت ندائنا لموسى، وتكليمنا إياه ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي ولكن أرسلناك بالقرآن، لرحمة عظيمة كائنة منك وللناس ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ أي لتخوف أهل مكة وكفارها عذاب الله ﴿ مَّا أَتَتْهُم ﴾ صفة لقوماً أي لم يأتهم ﴿ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمس مائة وخمسون سنة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتعظون بإنذارك.

﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي بما اقترفوا من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا﴾ عطف على أن تصيبهم، أي فيقولوا عند ذلك ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ أي هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ مؤيداً من عندك بآيات ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بها، والمعنى: لولا قولهم هذا، عند إصابة عقوبة جانياتهم، ما أرسلناك، لكن لما كان قولهم ذلك محققاً، أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفَرٍوَن ۝٤٨﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أهل مكة ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهو القرآن العظيم المنزل عليك يا محمد ﴿قَالُوا﴾ تعنتاً واقتراحاً ﴿لَوْلَا أَوْتِيَ﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من الكتاب المنزل جملة وهو التوراة ﴿أَوْلَمَ يَكْفُرُوا﴾ ردُّ عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق، أي ألم يكفروا ﴿بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هذا القول، كما كفروا بهذا الحق ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هما يعنون ما أوتي رسولُ الله ﷺ، وما أوتي موسى عليه السلام ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعاوناً بتصديق كل واحد منهما الآخر، وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود، فسألوهم عن شأنه ﷺ، فقالوا وجدناه في التوراة بنعته، فلما رجع رهط وأخبروهم بما قالت اليهود، قالوا ذلك ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفَرٍوَن﴾ تصريح بكفرهم بهما، وقرىء (ساحران).

﴿قُلْ فَاتَوْا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٩﴾ .

﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا ﴾ ﴿ مِمَّا أوتياه من القرآن، والتوراة ﴾ ﴿ أَتَّبِعُهُ ﴾ جواب للأمر، أي إن تأتوا به أتبعه، وهذا من الشروط التي يراد به الإلزام، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين، أمرٌ بيِّنُ الاستحالة ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ في أنهما سحران مختلفان، وفي كلمة ﴿ إِن ﴾ مع امتناع صدقهم، نوعٌ تهكم بهم .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أي فإن لم يفعلوا ما كلفتهم من الإتيان ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الزائغة، من غير أن يكون لهم تمسك بشيء ما، إذ لو كان لهم ذلك لأتوه، ﴿ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ استفهامٌ إنكاري أي لا أضل ممن اتبع هواه، وتقييد اتباع الهوى، بعدم الهدى من الله، لزيادة التقرير ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والشهوات، والإعراض عن الآيات الهادية البيِّنات .

﴿ وَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿

﴿ وَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أي أنزلنا القرآن عليهم، متواصلًا بعضه إثر بعض، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ومتتابعاً، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنوا بما فيه .

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل إتياء القرآن ﴿ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأشباهه، قال ابن

عباس: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب، آمنوا برسول الله ﷺ وصدقوا في دعوى الإيمان.

﴿ وَإِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا ۗ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ  
مُسْلِمِينَ ﴿٥٢﴾ .

﴿ وَإِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا ﴾ أي الحق الذي كنا نعرف حقيقته ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزوله ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة أي مؤمنين بأنه سيبعث.

﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا  
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٣﴾ .

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بِنبيِّه، وآمنَ بمحمد ﷺ، والعبْدُ المملوك إذا أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأذبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها ثم تزوجها، فله أجران»<sup>(١)</sup> ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمان بالرسول والقرآن ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي ويدفعون بالطاعات المعصية ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ في سبيل الخير.

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمُوا  
عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٤﴾ .

(١) الحديث أخرجه البخاري في العتق ١٢٦/٥ ومسلم رقم ١٥٤ في الإيمان.

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ القول القبيح، وذلك أن المشركين كانوا يسبّونهم ويقولون: تبتاً لكم، تركتم دينكم ﴿ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي عن اللغو تكراً كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ ﴿ وَقَالُوا ﴾ للشاتمين ﴿ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ أي لنا طريقتنا من الحلم والصفح، ولكم طريقتكم من الوقاحة والسفاهة، وكل على طريقته ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ بطريق المتاركة، وليس بتسليم وتحية، بل هو براءة ومفارقة، قال الزجاج، لم يريدوا التحية وإنما أرادوا المتاركة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ وقال بعضهم: نُسَخ ذلك بالأمر بالقتال، وهو بعيد، لأن ترك المسافهة مندوبٌ، وإن كان القتال واجباً ﴿ لَا تَبْنَعِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أي لا نبغي صحبتهم ولا نجازيهم بالباطل.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي ﴾ هداية موصلة إلى البغية لا محالة ﴿ مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ من الناس، ولا تقدر أن تدخله في الإسلام، وإن بذلت فيه غاية المجهود، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ولا تنافي بينهما، فإن الذي أضافه إليه الدعوة والبيان، والذي نفى عنه هداية التوفيق، وشرح القلب للإسلام، وهو نور يُقذف في القلب، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يهديه ممن يستأهل فيدخله في الإسلام ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي المستعدين لذلك، عن أبي هريرة قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية نزلت في رسول الله ﷺ، حيث راود عمّه أبا طالب على الإسلام والجمهور على ذلك، فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ وقال: يا عم: قل: (لا إله إلا الله) كلمة أحاجُّ

بها لك عند الله، قال له: يا ابن أخي، قد علمت أنك صادق، ولكنني أكره أن يقال فزع عند الموت. (١)

﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل حيث أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، لكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب، أن يتخطفونا من أرض مكة، فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾؟ أي ألم نعصمهم ونجعل بلدهم حرمًا ذا أمنٍ لحرمة البيت الحرام، الذي تتناحر العرب حوله، وهم آمنون؟ ﴿ يُجِئُ إِلَيْهِ ﴾ أي يجمع ويحمل إليه ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من كل أوب ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فإذا كان حالهم ما ذكر، وهم عبدة أصنام، فكيف يخافون التخطف إذا ضمُّوا إلى حرمة البيت العتيق، حرمة التوحيد؟ وكيف يكون الحرم أمنًا لهم في حال كفرهم، ولا يكون أمنًا لهم في حال إسلامهم؟ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي جهلة لا يتفطنون له، ولا يتفكرون.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِئْلِكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي وكثير من أهل القرى كانت حالتهم كحال هؤلاء في الأمن، وسعة العيش والدعة، حتى أشركوا فدمرنا عليهم، وخرَّبنا ديارهم، فالإصرار على الكفر، يزيل النعم، لا

(١) انظر صحيح البخاري ٥٠٦/٨ فقد ذكر القصة كاملة، وأن أبا طالب أبى أن يقول لا إله إلا الله، وفيه نزلت ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

الإقدام على الإيمان ﴿فَإِنَّكَ مَسْكَنُهُمْ﴾ خاوية بما ظلموا ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة، يوماً أو بعض يوم، ولم يبق من يسكنها إلا قليلاً، من شؤم معاصي المهلكين ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْتَأُوا عَلَيْهِمْ ۖ وَأَيَّتِنَا وَمَا كُنَّا مَهْلِكِ الْقُرَىٰ ۖ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أي ما صح وما استقام في سنته تعالى المبنية على الحكم، والمصالح، أن يهلك القرى قبل الإنذار، بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ﴾ أي في أصلها وعاصمتها، وخص الأم أي العاصمة ببعثة الرسل، لأنه يبعث للأشراف وهم سكان المدن، ولكون أهلها أظن وأنبل ﴿رُسُلًا يَلْتَأُوا عَلَيْهِمْ ۖ أَيَّتِنَا﴾ الناطقة بالحق، ويدعو إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجة، وقطع المعذرة، بأن يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك؟ والالتفات إلى نون العظمة لتربية المهابة، وإدخال الروعة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مَهْلِكِ الْقُرَىٰ ۖ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي وما كنا مهلكين لأهل القرى، بعدما بعثنا رسولا يدعوهم إلى الحق، في حال من الأحوال، إلا حال كونهم ظالمين، بتكذيب رسلنا، والكفر بآياتنا.

﴿وَمَا أَوْتِنَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾

﴿وَمَا أَوْتِنَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمور الدنيا ﴿فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا﴾ أي فهو شيء شأنه أن يُتَمَتَّعَ به، ويتزين أياماً قلائل ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب

﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسه من ذلك، لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم ﴿ وَأَبْقَى ﴾ لأنه أبدي ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ هذا الأمر الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ أي بالجنة، فإن حسن الوعد بحسن الموعود، فهو مدركه لا محالة، لاستحالة الخُلف في وعده تعالى ولذلك جيء بالجملة الاسمية، المفيدة لتحقيقه البتة ﴿ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الذي هو مشوب بالآلام، منغص بالأكدار، مستتبع للتحسر على الانقطاع ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ ثم أحضرناه يوم القيامة للحساب والعذاب، وتخصيص لفظ ﴿ مُحْضَرِينَ ﴾ بالذين أحضروا للعذاب، أمرٌ عُرف من القرآن، وصار مقروناً بالعذاب الإلهي.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي ينادي الله الكفار نداء توبيخ ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟ أنهم شركائي عبدتموهم من دون الله؟.

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ وهم شركاؤهم من الشياطين، ورؤساؤهم الذين أطاعوهم في كل ما أمرهم به، ومعنى ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أنه ثبت مقتضاه بدخول جهنم بقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ ﴾

مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾ ﴿رَبَّنَا هَاتُوا لَنَا الَّذِينَ آغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي ما أكرهناهم على الغي، وإنما أغويناهم بالوسوسة والتسويل، لا بالإلجاء والإكراه، فغفوا باختيارهم ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم، ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْبُدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ فَعِمِيَّتْ عَلَيْهِمْ﴾  
 ﴿الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَقِيلَ﴾ إما تهكماً بهم أو تبكيتاً لهم ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي الأصنام لتخليصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمُ﴾ لفرط الحيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ﴿وَرَأُوا الْعَذَابَ﴾ قد غشيتهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لوجه من الوجوه، لَمَا لَقُوا مَا لَقُوا مِنَ الْكُرْبِ وَالْبَلَاءِ!

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾؟ الذين نهوهم عن الشرك، أي ماذا أجبتهم رسلي؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم؟

﴿فَعِمِيَّتْ عَلَيْهِمُ﴾ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴿أي فصارت كالعمى عنهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعموا عن الأنبياء، وقد عكس للمبالغة، أي خفيت عليهم الحجج، وأظلمت عليهم الأمور، فهم حيارى واجمون، لا يعرفون ما يقولون﴾ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب، لفرط الدهشة والفرع.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ﴿١٧﴾ .

(١) سورة هود، آية: ١١٩.

﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ من الشرك ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عنده تعالى، و «عسى» للتحقيق<sup>(١)</sup> على عادة الكرام، أو للترجي من قبل الطالب، أي راجياً الفلاح من ربه الكريم.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أن يخلقه ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ما شاء اختياره من غير إيجاب عليه، ولا منع له أصلاً ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي ما كان لأحد من العباد اختيار، فهو الخالق المختار، والواحد القهار، فكما أن الخلق إليه، فكذلك الاختيار له ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهاً له أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختياره، نزلت هذه الآية، جواباً لقول المشركين، حين قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾<sup>(٢)</sup> ؟.

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي هو جلّ وعلا العالم بما تخفيه صدورهم، من الكفر والعداوة للرسول ﷺ ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن فيه ﷺ.

(١) قال ابن كثير ٤٠٨/٣: وعسى من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومثته لا محالة. اهـ أقول: الترجي الوارد في القرآن بمنزلة التحقق، لأنه وعدٌ كريم من رب رحيم، وهو جلّ وعلا لا يخلف وعده.  
(٢) سورة الزخرف، آية: ٣١.

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تَرْجَعُونَ ﴿٧٦﴾ .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ أي المستحق للعبادة وحده ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا أحد يستحقها إلا هو سبحانه ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ لأنه المُولي للنعم كلها، عاجلها وآجلها، على الخلق كافة، يحمده المؤمنون في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة بقولهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ ابتهاجاً بفضله، والتذاذاً بحمده ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء ﴿ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ ﴾ بالبعث إلى حكمه وقضائه .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ

اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ تقريراً لما ذكر ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ أي دائماً من السَّرْد، وهو المتابعة والاطراد، والميم زائدة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سَرْدٌ، وواحد فَرْدٌ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض ﴿ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور والضياء؟ وعليه يدور أمر التبكيك والإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾<sup>(١)</sup> ونظائره ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾؟ هذا الكلام الحق، سماع تدبر واستبصار، حتى تدعوا له، وتعملوا بموجبه، فالمعنى: أخبروني من يقدر على هذا غير الله تعالى؟ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٨﴾ .

(١) سورة تبارك الملك، آية: ٣٠ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا ﴾ أي جعل النهار دائماً مستمراً دون انقطاع، في وسط السماء ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ اللَّهُ يَأْتِيكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهَا ﴾ للاستراحة من متاعب الأشغال، ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه، لكونه مقصوداً بذاته ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ هذه المنفعة؟ وإنما قال: ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ و ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ لأن الغرض من ذلك الانتفاع، فلما لم ينتفعوا نُزِّلوا مرتبة من لا يسمع ولا يبصر.

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾ .

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي لتعرفوا نعمة الله في ذلك، فتشكروه عليها.. جمع تعالى الليل والنهار، ثم قال ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فأعاد السكّن إلى الليل، وطلب الرزق إلى النهار، بطريقة «اللفّ والنشر المرتب»، وهذا من لطيف علم البديع

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ  
تَزْعُمُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تفرّيع إثر تفرّيع، للإشعار أنه لا شيء أجلب لغضب الله، من الإشراف بالله.

﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ  
لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ عطف على يناديهم، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، أي أخرجنا ﴿ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿ شَهِيدًا ﴾ أي نبياً يشهد

عليهم بما كانوا عليه، أو هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ﴿فَقُلْنَا﴾ لكل أمة من تلك الأمم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوا﴾ يومئذ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي غاب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الآلهة المزعومة، من الأوثان والأنداد.

﴿ إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَعَايَنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسَنُورٌ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿ إِنَّ قُرُونًا ﴾ قيل كان ابن عم موسى عليه السلام وأعلم بني إسرائيل، ولكنّه نافق كما نافق السامري ﴿ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ أي من جماعته وعشيرته ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ أي تناول عليهم بالكبر والعلو ﴿ وَعَايَنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ أي الأموال المدخرة ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ أي مفاتيح صناديقه، وهو جمع مفتاح بالكسر، وهو ما يُفتح به، والمعنى: آتينا من الكنوز ما إن مفاتيح خزائنه ﴿ لَسَنُورٌ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾ ناء به الحمل: إذا أثقله، والعصبة الجماعة الكثيرة، أي يثقل على الجماعة أصحاب القوة، حمل مفاتيح خزائنه، لكثرتها وثقلها، فضلاً عن حمل الخزائن والأموال ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ﴾ أي لا تبطر، والفرح في الدنيا مذمومٌ مطلقاً، لأنه نتيجة جهالة حال الدنيا، أن ما فيها من اللذة زائل لا محالة، والمراد بالفرح هنا: فرح البطر والأشر، والتكبر على عباد الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي بزخارف الدنيا، والذين لا يشكرون الله على فضله وإنعامه.

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من الغنى والثروة ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي ثواب الله، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، بأن تتصدق به على الفقراء، وتصل الرحم، وتصرفه إلى أبواب الخير ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي لا تترك ترك المنسي ﴿نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تحصل منها ما يكفيك ﴿وَأَحْسِنْ﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بما أنعم عليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ نهى عما كان عليه من الظلم والبغي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

﴿قَالَ﴾ مجيباً لناصحه ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ كأنه يريد الردّ على قولهم: ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي إنما فضلتُ به على الناس، بالمال والجاه، لمعرفتي بوجوه المكاسب، وبسبب ذكائي ومهارتي ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم﴾ توبيخ له من جهته تعالى، على اغتراره بقوته، وكثرة ماله فالمعنى: ألم يقرأ في التوراة، ولم يعلم ما فعل الله بأضرابه، من أهل القرون السابقة، حتى لا يغترّ بما اغترّوا به؟ ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يسألون سؤال استعلام، بل يعذبون بها بغته، فالله عزّ وجلّ عالم بجرائمهم، ولا حاجة أن يسألهم عنها، كما قال سبحانه: ﴿يُعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْلَتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورَيْشٌ أَنَّهُ لَدُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أي فخرج عليهم في زينته، بأبهى الحلل، وأجمل الخيل، مع خدمه وحشمه، في موكب حافل باهر ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ جرياً على الرغبة في السعة واليسار ﴿ يَنْلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ أي ياليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون ﴿ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ تعليل لتمنيهم وتأکید له، أي ذو نصيب وافر من الدنيا، ومكانة عظيمة من الجاه.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي العقلاء من أهل العلم والفهم، الذين لا تخدعهم المظاهر البراقة ﴿ وَيَلَكُمْ ﴾ دعاء شاع في الزجر عما لا يرتضى، أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا التمني والكلام الفارغ ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي ثوابه تعالى في الآخرة ﴿ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فلا يليق بكم، أن تتمنوه غير مكتفين بثواب الله تعالى ﴿ وَلَا يُلْقَاهَا ﴾ أي هذه المنزلة والفضيلة ﴿ إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ على أمر الله، والمعرضون عن زينة الدنيا وشهواتها.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ فإنه لما أشر، وبَطِر، وعتا، خسف الله به وبداره الأرض، جزاءً على عتوه. وطغيانه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ ﴾ أي جماعة مشفقة ﴿ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي الناجين من العذاب، الممتنعين منه، لأنه لا نصير لهم ولا معين.

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ و صار ﴿ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ ﴾ منزلته من الدنيا ﴿ بِالْأَمْسِ ﴾ منذ زمان قريب، ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ﴿ يَقُولُونَ وَيَكَابُ ﴾ «وي» كلمة تنبيه على الخطأ والندم، يستعملها النادم بإظهار ندامته، وكأن للتشبيه، والمعنى: ما أشبه هذا الأمر، يعني أن القوم قد تنبَّهوا على خطئهم في تمنيتهم، وتندَّموا على ذلك ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء، ويضيِّق الرزق على من يشاء، يفعل كل واحد منهما بمحض مشيئته، لا لكرامةٍ توجب البسط، ولا لهوانٍ يقتضي القبض ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي لولا أن الله لطف بنا بعدم إعطائه إيانا ما تمنيناه ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ كما خسف بقارون ﴿ وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ لنعمة الله تعالى، أي اعجبوا من فعل الله أيها القوم، فإنه لا يفوز ولا يظفر بالسعادة، الكافرون.

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنه قيل: تلك التي سمعتَ خبرها، وبلغك وصفها ﴿ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي غلبة وتسلطاً ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ أي ظلماً وعدواناً على العباد كدأب فرعون وقارون ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ الحميدة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون ما لا يرضاه الله، من الأفعال، والأقوال.

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي مثل ما كانوا يعملون، أخبر تعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمة، وأن الحسنة تضاعف أضعافاً كثيرة، مبالغة في التحذير من عمل السيئات.

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ ﴾ أي أوجب وأنزل ﴿ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد تلاوة ﴿ الْقُرْآنَ ﴾ وتبليغه، والعمل به، ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي لرادك بعد الموت إلى معادٍ، تمتد إليه أعناق الهمم، وترنو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود، الذي وعدك به، وقيل: هو مكة المعظمة، فقد نزلت عليه في مهاجره، حين بلغ الجحفة، وذلك أقرب وهو قول أكثر المفسرين<sup>(١)</sup> ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وما يستحقه من العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسه ﷺ، والمشركين، وهو جواب لكفار مكة، لما قالوا للرسول ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، وتقرير للوعد السابق.

(١) هذا وعدٌ من الله عزَّ وجلَّ بفتح مكة، وعودة المصطفى ﷺ إليها بعد أن هاجر منها، وهذه الآية من أعلام النبوة، فإنه خيرٌ عن غيب، وقد وقع كما أخبر عنه القرآن، حيث رجع رسول الله ﷺ إلى مسقط رأسه، ظافراً منتصراً بعد سنوات قليلة من هجرته، والمعنى: إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد، لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وهذا القول مروى عن ابن عباس والضحاك، وهو الأشهر والأظهر، والله أعلم.

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت تطمع أن تنال النبوة، وينزل عليك القرآن ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ولكن ألقى إليك رحمة منه: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي معيناً للكافرين بمداراتهم، ولا إجابة إلى طلباتهم.

﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ وَلَا يَصُدُّنَكَ ﴾ أي الكافرون ﴿ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ عن قراءتها والعمل بها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ وفُرِضَتْ عليك ﴿ وَأَدْعُ ﴾ الناس ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي إلى عبادته وتوحيده ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ هذا وما قبله للتهييج، والإلهاب، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته ﷺ لهم، روي عن ابن عباس أنه قال: «الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ، والمراد به أهل دينه» والعصمة لا تمنع أن ينتهي عن القبح من لا يمكن صدوره عنه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي إلا ذاته جلّ وعلا، فإن كل ما عداه كائناً ما كان، عرضة للهلاك والفناء ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ عند البعث للجزاء لا إلى غيره، والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص»

\*\*\*